جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

دراسات إسلامية
سلسلة تصدر
فى منتصف كل شهر عربى
[العدد ٥٩]

من أعلام الصحابة فى مصر

أبو أيوب الأنصارى

خالد بن زيد

أ.د. عبدالعزيز غنيم

القاهرة
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

دراسات إسلامية
سلسلة تصدر
فى منتصف كل شهر عربى

من أعلام الصحابة فى مصر

أبو أيوب الأنصارى

خالد بن زيد

أ. د. عبدالعزيز غنيم

[العدد ٥٩]

القاهرة

جمادى الآخر ١٤٢١هـ - سبتمبر ٢٠٠٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

على سبيل التقديم

أ . د . عبد الصبور مرزوق

لبيك أبا أيوب

هكذا تحدث السلطان التركى العظيم محمد الفاتح وجعل من تلبيته أبا أيوب كلمة السر للجيش الذى قاده واقتحم به أسوار القسطنطينية وفتحها بعد ما استعصت على من سبقوه من السلاطين .

* * *

وأبو أيوب الذى لبّى نداءه السلطان محمد الفاتح هو أبو أيوب الأنصارى الصحابى الجليل الذى تعنى بترجمته هذه الدراسة .

وإذ أدع القارئ يتعرف على شخصية أبى أيوب من خلال ما جاء فى ترجمته ، تستوقفنى سطور قليلة جاءت فى الصفحات الأخيرة من الترجمة يقول فيها أبو أيوب ليزيد بن معاوية حين جاءه يعوده وقد بلغ المرض والضعف منه كل مبلغ فسأله يزيد :

ألك حاجة ؟

قال : أما إليك فلا .

قال يزيد : ألك وصية ؟

قال أبو أيوب : نعم : إذا مت فانغمسوا فى العدوّ حتى إذا بلغتم أقرب مكان منهم عند السور (يعنى سور القسطنطينية) فاحفروا لى قبراً فادفنونى فيه ولتطأ الخيل المكان حتى لا يظهر منه ما يدل عليه .

* * *

رحم الله أبا أيوب الأنصارى

كم من مئات الأميال قطعها منذ خرج من المدينة المنورة فى أرض الجزيرة حتى بلغ موقعه هذا ليدفن عند سور القسطنطينية ؟

وكيف كانت أفكاره ومشاعره وهو رجل فى خريف العمر أكلت الأيام والأحداث عافيته ، ومع هذا يصر على المشاركة فى هذا الجيش المتجه أقصى الشمال لفتح القسطنطينية عاصمة الصليبية الشرقية آنذاك ؟

لن أقول : كما تؤكد هذه الدراسة إن الرجل كانت غايته منذ عرف الإسلام أن يجاهد فى سبيل الله ، مع الرسول ﷺ ومع خلفائه من بعده حتى زمن معاوية .

بل أضيف إلى ذلك أن هذه القسمة كانت إحدى صنائع الإيمان لهذا الجيل العظيم من صحابة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، الذين كانت أرواحهم على أكفهم دائماً يعدونها للبذل عند أى نداء للجهاد فى سبيل الله .

وحسبك أن تعلم أن هذا الجيش الذى قطع المسافات الطوال من المدينة المنورة إلى القسطنطينية فى أقصى الشمال لم يكن فيه أبو أيوب الأنصارى وحده من الصحابة .

وإنما كان فيه الحبر الجليل عبد الله بن عباس وأحد حلقات السلسلة الذهبية فى سند الرواية للحديث عبد الله بن عمر ، ثم كان فيه كذلك عبد الله ابن الزبير وغيرهم ممن لو قعدوا ما لامهم أحد إما لمكانتهم وإما لأعباء العمر .

لكنهم خرجوا يؤكدون مسيرتهم الجهادية التى بدأوها مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه حتى زمان معاوية .

* * *

هذا الجيل العظيم من الصحابة رضوان الله عليهم والذين لا تكاد الأجيال المعاصرة من شباب أمتنا تعرف عنهم إلا القليل هم الذين حملوا رسالة الإسلام ونقلوها إلى الأمة عبر الزمان والمكان حفاظاً

لكتاب الله ومفسرين له ، وهم الذين نقلوا سنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه رواة وشارحين ، بل ومنافحين عنها فى وجه الكذابين والوضاعين وأسسوا قواعد النقل والتحديث والرواية تاركين للمسلمين فى شتى بقاع الأرض علامات الهداية ومنارات الطريق إلى المعرفة الصحيحة بكتاب ربهم وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه .

* * *

ليس فى هذا المقام فحسب ، بل خرجوا يحملون دائماً أرواحهم على أكفهم يجاهدون ويستشهدون دفاعاً عن دين الله ناشرين دعوته يجوبون الأقطار بل ويركبون البحار على غير سابق خبرة فيها حتى يمكنوا فى أرض الله لكلمات الله لا يبتغون من دنيا الناس شيئاً ، تقودهم على الطريق صنائع إيمانهم بربهم وحبِّهم لرسوله صلوات الله وسلامه عليه وحرصهم على إخراج الناس من الضلالة إلى الهدى ومن الظلام إلى النور .

* * *

هذا الجيل العظيم من الصحابة جدير بأن تتعرف عليه الأجيال من شباب الأمة يجدون فيه نعم القدوة والأسوة ليروا كيف خرجت الرسالة من أرض

الجزيرة فشرقت وغربت فى شتى بقاع الأرض يحملها هؤلاء الذين أحبوا صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه فأحبوا رسالته ومنهم كان صاحب هذه الترجمة أبو أيوب الأنصارى رضوان الله عليه الذى كان استشهاده عند أسوار القسطنطينية . نعم الدافع للسلطان محمد الفاتح فى إذكاء روح الجهاد والاستبسال فى القتال حتى أحرزوا ذلك النصر التاريخى بفتح القسطنطينية حيث وضعت دعوة الإسلام أقدامها تفتح أبواب أوروبا كى يدخلها الإسلام أول مرة فى التاريخ .

* * *

وهنا يجب التذكير بأهمية العامل الدينى وأثر صنائع الإيمان فى امتلاك أسباب النصر فى كل المعارك التاريخية التى خاضها المسلمون عبر تاريخ الدعوة ، والتى كان مما عاصرناه هو نصر العاشر من رمضان .

الأمر الذى يحملنا على التذكير دائماً بأهمية أثر العامل الدينى ليس فقط فى إحراز النصر فى ميادين القتال فحسب ، بل وفى كل موقع يكون المسلمون طرفاً فيه ، حتى فى التعامل مع الشئون العامة للحياة ، لأن من شأن الإيمان أن يصنع الإخلاص فى العمل ويمنح القوة فيه ، ويضع العاملين

المتأثرين بروح الدين وصدق التدين على الإتقان والإحسان ، والظفر بأعظم النتائج .

* * *

ونعود إلى أبى أيوب رضى الله عنه الذى نزل الرسول صلوات الله وسلامه عليه عند الهجرة لنرى أن داره هى الدار التى اختارتها السماء لينزل فيها الرسول إذ كانت قبائل الأنصار تتسابق على شرف أن ينزل الرسول فى أحيائها ، وكلما مرت الناقة بأحدها يمسكون بخطام الناقة لكى ينزل عندهم ، كان الرسول ﷺ يقول لهم : دعوها فإنها مأمورة !!! الناقة مأمورة أن تمضى حتى تنيخ فى المكان المقدر لها ، ومضت الناقة حتى أناخت فى حىّ أخوال الرسول من بنى النجار وعند بيت أبى أيوب الأنصارى رضوان الله عليه .

* * *

ولأن أبا أيوب لم يكن من الوفرة بحيث يستطيع استضافة الرسول والركب الذين معه فقد كان الأنصار من القادرين يتولون مهام الضيافة كما أشرنا وتأتى جفانهم بالطعام إلى بيت أبى أيوب ، فإذا فرغ الرسول من طعامه كان الرجل وزوجته يتتبعان مكان أصابع الرسول صلوات الله وسلامه عليه ليأكلا من حيث كان يأكل تبركاً ومحبةً .

وأعربت هذه المحبّة وهذا الإجلال للحبيب ﷺ عن نفسها إذ قال أبو أيوب للرسول : الأفضل أن تكون أنت فى علو الدار (طابقها الأعلى) إجلالاً ومهابة وما يجوز لأبى أيوب وأهله أن يكونوا فى العلو فوقك .

لكن إنسانية محمد صلوات الله وسلامه عليه وحسن إدراكه للأمور لم يقبل وهذه أرجح الروايات عندى لأنه قدر أن قبائل الأنصار ستأتيه مرحبة مبايعةً ومعاهدةً ، وسيكون أول طابق فى الدار هو الأولى والأيسر ، وهو الأليق أيضاً بصيانة أهل البيت من زحمة الزائرين .

رضى الله عن أبى أيوب .. وصلوات الله وسلامه على سيد الخلق وإمام المرسلين .

أ . د . عبد الصبور مرزوق

نائب رئيس

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ما أعظم النور ، وما أجلَّ أثره وخطره ، إنه يبدد ظلمات هذه الحياة ، ويساعد الإنسان على سلوك طرقها الوعرة ، والسير فى سُبلها الملتوية والمتعرجة ، ويكشف أمام عينيه ما يكْتَنِفُه ويحيط به مما يضره ويؤذيه ، وما يسره ويرضيه . فيفعل ما يفعل عن علم ، ويأتى ما يأتى عن معرفة . فإذا اختار الخير فلنفسه عمل ، وإلى سعده سلك ، وإذا اختار الشرّ فقد أطاع الهوى ، وآثر الضلال على الهدى .

ومعنى هذا أن النور نوران ، أحدهما محسوس يدركه البصر ، والآخر معقول تدركه البصيرة . وكما أن الأول قد أودعه الله تعالى الشموس والأقمار ، فإنه سبحانه قد جعل الثانى فى المصطفين والأخيار . وقد أشار النبى عليه الصلاة والسلام إلى هذا المعنى فى قوله : « **أصحابى كالنجوم .. بأيِّهم اقتديتم اهتديتم** » ، فإنه قد أخبر فى إيجاز وإعجاز أن الله تعالى قد زيَّن السماء المادية بمصابيح هى النجوم ، وزين السماء الروحية بمصابيح كذلك هى من اصطفاهم من خلقه ، واختارهم من عباده ، ومنهم أصحاب نبيه ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا يعنى أن فى السماء مصابيح وأن فى الأرض مصابيح كذلك ، وأن الحياة لا تصلح ولا تستقيم بدونهما معاً . والواقع خير دليل على صواب هذه

المقولة ، فإن المسلمين أيام كانوا يُجلُّون أصحاب رسول الله ، وينسجون على منوالهم فى الحياة ، كانوا قادة الناس ورُعاتهم ، وأصحاب الحول والطول فيهم ، فلما خالفوهم وحادوا عن سبيلهم ، واختاروا مُثُلهم من غيرهم .. غيَّر الله ما بهم ، فخافوا بعد أمن ، وجهلوا بعد علم ، وأصبحوا فى مؤخرة الأمم . ولا سبيل إلى استعادة أمجادهم ، وارتفاع سلطانهم إلا إذا عادوا إلى هذه المصابيح يمشون فى نورها ، وهذه المُثُل ينسجون على منوالها ، ويلتزمون منهجها ، وشرعتها .

وأبو أيوب الأنصـــارى - رضى الله عنه - أحد هذه المصابيح التى ينبغى على المسلمين فى هذا العصر أن يمشوا فى نورها ، ويقتبسوا من ضوئها ، ويجعلوها مثلاً أعلى لهم فى شتى جوانب الحياة .

ففى الجهاد سلك **أبو أيوب** سبيله تحت ألوية النبى عليه الصلاة والسلام عشر سنين ، وهى مدة حياته فى المدينة . فلم يغب عنه فى غزوة ، ولا تخلف عن السير خلفه فى مشهد ، وإنما كان إذا سمع مناديه يقول : حى على الجهاد حمل روحه على كفيه وخرج لا يفكر فى أهل ولا نسب ولا فى مال ولا ولد .

وقل مثل هذا فى حياته العلمية ؟ فقد روى حديث رسول الله ﷺ وأكثر من حفظه كما رواه حتى كانت تُشد إليه الركاب ، ويأتيه الكثيرون من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام وتابعيهم يروون عنه ما حفظ ، ويأخذون ما سمع ، ثم ينسابون فى طول بلاد الإسلام وعرضها لتفقيه الناس وتعليمهم الأحكام .

وفى ميدان العبادة والزهادة كان **أبو أيوب** مثلاً يضرب لكل من جاءته الدنيا صاغرة فأعرض عنها ولم تستهوه مُتَعُها وملذاتها ، ووضع نُصب عينيه قوله تعالى : **﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون * وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ﴾**[1] .

ولم تنحصر مناقب **أبى أيوب** وفضائله فى هذا وحسب وإنما كانت له مآثر أكثر من أن تحصى ، فقد أقام فى الثغور الإسلامية مرابطاً فيها ، فإذا نادى منادى الغزو ، مضى حتى انغمس فى صفوف الأعداء يضرب بالسيف ويطعن بالرمح إلى أن وافته المنون على مقربة من أسوار القسطنطينية .

وعلى الرغم من أن العرب كانوا يخشون البحر ويتحامون ركوبه لأنهم كانوا أمة صحراوية لا تعرف البحر ولا تعلم عنه إلا ما يخيف ، فإن **أبا أيوب** كان من الذين ألقوا بأنفسهم فيه وغزوا الأعداء على ظهره ، غير مكترث بما سمع عنه من أهوال، كل ذلك إيثاراً لرضا الله ورغبة فيما أعده لعباده فى دار النعيم . فرحم الله **أبا أيوب** ، ومنحنا القدرة على عرض سيرته بما يهدى القارىء ويرضيه ويحفزه على أن يتخذ منه الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة فى الدين والدنيا .

---

(١) الزخرف: ٣٣-٣٥.

الفصل الأول

فـى إسلامـــه

لا يعرف التاريخ على وجه التحديد متى ولد أبو أيوب ولا متى دخل فى الإسلام . فقد أمسكت المصادر التى بين يدى ، فلم تتناول هذين الأمرين ، ولا واحداً منهما لا على سبيل العبارة والتصريح ، ولا على سبيل الإشارة والتلميح .

والذى لا شك فيه هو أن أبا أيوب خالد بن زيد [1] لم يكن ضمن الوفد الذى صحب أبا الهيصرة ، ينشد محالفة قريش على الأوس ، ولم يكن ضمن الستة أو الثمانية الذين لقيهم النبى صلوات الله عليه عند العقبة الأولى ، والأمر كذلك بالنسبة للاثنى عشر الذين بايعوه صلوات الله عليه بيعة النساء عند العقبة الثانية . فلم يكن أبو أيوب رضى الله عنه واحداً منهم ، ولا جاء له ذكر فى الحديث الذى دار بين النبى عليه الصلاة والسلام وبينهم .

وقد ذكره المؤرخون وكتاب المغازى ضمن السبعين الذين شهدوا بيعة العقبة [2] الثالثة . ومعنى هذا أن إسلامه رضى الله عنه قد كان على يد مبعوثى النبى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة لدعوة أهلها إلى الإسلام وإقرائهم ما نزل من القرآن ، وهما مصعب بن عمير ، وعبد الله بن أم مكتوم [3] . فإن هذين

(١) ابن عبد البر . الاستيعاب ١/٤٠٥ .

(٢) ابن سعد . الطبقات الكبرى ٣/٤٨٤ .

(٣) المقريزى . إمتاع الأسماع ١/٥٤ .

المبعوثين قد وفدا إلى المدينة إثر بيعة العقبة الثانية . وأقاما فى دار أسعد بن زرارة رضى الله عنه يدعوان إلى الإسلام ، ويقرآن القرآن ، ويعلمان الأحكام . ولما كثر المسلمون ولم تعد تتسع لهم دار ابن زرارة رضى الله عنه ، انتقل الرجلان إلى دار أخرى أرحب وأوسع وهى دار القراء .

والمؤرخون وإن لم يحددوا مكان هذه الدار ، ولم يذكروا ما إذا كانت فى أحياء الأوس ، أو الخزرج ، فإنى لا أرتاب فى أنها لم تكن فى حىٍ من الأحياء التابعة لإحدى هاتين القبيلتين ، وإنما كانت فى مكان بينهما حتى لا تمنع إحداهما أحداً ممن ينتمى إلى الأخرى من دخولها . والتعلم على يدى ابن عمير وابن أم مكتوم فيها .

ولا جدال فى أن أبا أيوب قد زار هذه الدار ، أو زار سابقتها، وتتلمذ على كل من مصعب بن عمير ، وعبد الله بن أم مكتوم ، وسمع القرآن منهما ، وتفقه فى الأحكام على يدهما ، وأثر عبادة الله الواحد على عبادة الأصنام والأوثان لما بهرته حججُهما ، وهزت عواطفه ومشاعره أدلتهما وبراهينهما ، واشتاق كما اشتاق غيره من أبناء الأوس والخزرج إلى معرفة مصدر هذا النور الوهاج ، ومشاهدة طلعته التى تشرح الصدور . فلما دنا موسم الحج ، وأخذ أهل يثرب يتجهزون لقصد أم القرى لحج بيت الله الحرام ، ومشاهدة ما حوله من المناسك والمشاعر تجهز أبو أيوب رضى الله عنه مع من تجهز من المسلمين والمشركين ، وكانوا خمسمائة . كلهم على دين الآباء والأجداد

ما خلا سبعين منهم آثروا الحق على الباطل ، وفضلوا الهدى على الضلال فانقادت لله نفوسهم ، وأسلمت له وجوههم ، ودخلوا فى الحنيفية السمحة طائعين لم يرهبهم سيف ولا أرغمهم رمح ، وإنما أصغوا لصوت العقل ، وانقادوا لنداء الإيمان .

وما أشك فى أن أبا أيوب رضى الله عنه قد كان وهو فى طريقه من يثرب إلى مكة ، يذكر النبى عليه الصلاة والسلام . وما كان ولا يزال يعانيه من إيذاء قومه له ، واجتماعهم على مناوئته ، وزرعهم المصاعب والعقبات فى طريقه ، واجترائهم عليه بأيديهم وألسنتهم حتى اضطروه إلى أن يأتى القبائل فى مضاربها ، ويقصد العشائر فى أسواقها [١] . يدعوها إلى الحق ، ويناشدها الحماية والعون حتى يُبلغ رسالة ربه [٢] ، ويبين آمناً مبادىء دينه ، وأهداف دعوته ، وكم كانت تنهمر الدموع من عينيه وهو يستعرض مقاطعة قريش له وحصرها إياه ، وأقاربه من بنى هاشم ، وبنى المطلب فى شِعب أبى طالب [٣] . ومنعها عنهم الماء ، والطعام ، وإصرارها على ذلك ثلاثة أعوام [٤] ، حتى

---

(١) ابن الأثير . الكامل ٢/ ٦٥ .

(٢) ابن سعد . الطبقات الكبرى ١/ ٢١٦ .

(٣) المقريزى . إمتاع الأسماع ١/ ٢٥ .

(٤) ابن سعد . الطبقات الكبرى ١/ ٢٠٩ .

لم يكونوا يجدون ما يأكلونه غير الهوام والحسك وما كانت تحمله إليهم الرياح من الشوك وأوراق الشجر . وكم كانت تخنقه العبرة ، وتكويه الزفرة وهو يتصوره صلوات الله عليه وهو يودع عمه أبا طالب ، وزوجه خديجة اللذين لم يكادا يخرجان من الحصار ، حتى لبيا نداء ربهما (١) ، متأثرين بما كابداه أثناء المقاطعة من الأسى ، وما عانياه من الجوع والخوف . حتى ضعف جسمهما وخارت قوتهما ، وسرى الهزال والمرض في كل عضو من أعضائهما .

وقد كانا له عليه الصلاة والسلام الحصن الذى يلجأ إليه عند الشدة ، والركن الذى يلوذ به من الخطب والمحنة . فبكى طويلاً لفراقهما ، واعتزل الناس أياماً أسفاً على موتهما . وسمى العام الذى هلكا فيه عام الحزن (٢) تحسراً على فقدهما .

ومضى أبو أيوب رضى الله عنه فى استعراض هذه الذكريات الأليمة حتى وقف رضى الله عنه حيال الطائف . فراح يتذكر ما أصاب النبى عليه الصلاة والسلام من أهلها ، وقد خرج إليهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، ونبذ ما سواها من عبادة الأصنام التى لا تضر ولا تنفع . وكم اشتد بكاؤه رضى الله عنه ، وحمى وجيب قلبه وهو يرى الحمقى والسفهاء وهم يرمونه بالحجارة (٣) ، وهو يسقط ، ويقوم حتى وهن جسمه ،

---

(١) ابن كثير . السيرة النبوية ٣٠٧/١ . (٢) ابن الأثير . الكامل ٦٣/٢ .

(٣) ابن سعد . الطبقات الكبرى ٢١٢/١ .

وخارت قوته ، ولجأ إلى أصل شجرة ، وقد أنهكه التعب ونال منه الأسى والنصَب . فرفع يديه إلى السماء ، وأخذ يناجي ربه وعيناه تذرفان :اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أكرم الأكرمين ، أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى قريب ملَّكته أمرى . إن لم يك بك غضب علىَّ فلا أبالى [1] .

هكذا كان يفكر أبو أيوب رضى الله عنه وهو فى طريقه إلى مكة ، فلما بلغها لم يكن شىء أحب إليه من أن يرى وجه محمد عليه الصلاة والسلام ، ويتحدث إليه حديث العاشق الولهان إلى مَن ملك عليه قلبه ، واستولى على مشاعره وخواطره . وقد تحققت له هذه الرغبة ليلة العقبة [2] . فقد كان صلوات الله عليه فى انتظار أصحابه على كثب منها . فرآه أبو أيوب رضى الله عنه كما كان يرى البدر ليلة التمام ، مهيب الطلعة ، جميل المُحيَّا . يغمره النور من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، ومن فوقه ، ومن تحته .

وتحدث إليه فى إجلال وتقدير ، وحاوره فى احترام وتوقير. شأنه فى هذا شأن غيره من أصحابه السبعين الذين ما تحملوا الأخطار إلا من أجله ، ولا جابوا الفيافى والقفار إلا لمشاهدة وجهه ، واجتلاء مُحيَّاه . صحيح أن المصادر التى بين يدى لم

---

(١) ابن هشام . السيرة النبوية ٤٨/٢ .

(٢) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ٤٨٤/٣ .

تذكر شيئاً عن **أبى أيوب** رضى الله عنه ليلة العقبة . فلم تحدثنا عنه وهو يخطب ، ولا أرتنا وجهه وهو يبايع النبى صلوات الله عليه على المنع والحماية ، ويعاهده على الانقياد والطاعة ، ويقول له ما يقوله أصحابه : **بايعنا يا رسول الله على أن نمنعك من الأسود ، والأحمر ، والعرب والعجم ، والإنس والجن ، وكل ما نمنع منه أنفسنا وأزواجنا ، وذريتنا وأموالنا** .

وليس معنى هذا أن الرجل لم يكن له دور ليلة العقبة ، ولكن المؤرخين ، وكتاب السير قد سجلوا أدوار البعض دون البعض طمعاً فى الاختصار من جهة ، ولتقارب الأدوار وتشابهها من جهة ثانية .

وعلى كل حال فإن **أبا أيوب** رضى الله عنه قد آوى إلى رحله فور انفضاض الاجتماع ، كما أوى أصحابه . وغادر مكة كما غادروها ، خوفاً من قريش أن تقبض عليهم ، وتعرف ما دار فى اجتماع العقبة منهم . فقد ذكر الرواة أنها لما بلغها ما كان بين الأنصار ومحمد صلوات الله عليه بعثت فى أثرهم مَن يُعيدهم إلى مكة [1] . غير أنهم كانوا قد نأوا ونجوا . ولم يقع فى يدها منهم سوى **سعد بن عبادة** رضى الله عنه ، فسبُّوه وعذبوه ، ولم يخلصه من أيديهم غير رجلين من أشرافهم . كان سعد يحمى تجارتهما ، ويُجير قوافلهما [2] .

---

(١) ابن الأثير . الكامل ٢/٧٠ . (٢) ابن كثير . السيرة النبوية ١/٢٤٩-٢٥٠ .

وأياً ما كان فإن أبا أيوب رضى الله عنه قد عاد إلى بلاده ، وراح كما راح غيره يستقبل الوافدين من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام فى مكة . فقد أذن لهم الله تعالى فى الهجرة .

فاقبلوا عليها ذرافات ووحدانا (١) . وهم على ثقة من أن النبى عليه الصلاة والسلام فى أثرهم . وليس يؤخره سوى انتظار الإذن له من ربه الذى سوف لا يتأخر طويلاً . فما كان الله ليسمح لأصحابه صلوات الله عليه أن يغادروا مكة ، ويترك رسوله فيها وحيداً ، فريداً بين عنت المشركين الذى لا يهدأ ، وكيدهم الذى لا يزول . وليس أدل على هذا من أنه عليه الصلاة والسلام قد أخبر أصحابه أنه رأى دار هجرته ، وأنها سَبِخة بين لابتين (٢) . وهذا الوصف لا ينطبق إلا على المدينة . هذا ما شاهده فى نومه .

وفى ليلة الإسراء أنزله عليه الصلاة والسلام جبريل فى هذا المكان نفسه وأنبأه أنه هو دار هجرته (٣) ، ولا معنى لهذا إلا أن الله تعالى قد اختار يثرب لتكون أرض الإسلام ، واختار أهلها ليكونوا حُماة دولته ، وحملة ألويته وراياته .

وقد تحقق هذا كله . فقد أذن الله لنبيه عليه الصلاة والسلام فى الهجرة إلى المدينة (٤) بعد وقت غير طويل من إذنه لأصحابه .

---

(١) المقريزى . إمتاع الأسماع ٣٨/١ .   (٢) ابن كثير . السيرة النبوية ٣٣٠/١ .

(٣) ابن كثير . الكامل ٣٤/٢ .   (٤) ابن سيد الناس . عيون الأثر ٢٣٥/١ .

وما كاد صلوات الله عليه يتلقى هذا الإذن حتى أعدَّ للأمر عُدته ، وأخذ له أهبته وخرج من داره ليلاً ، والفتيان حولها شارعين السيوف ، مسددين الرماح ، عاقدين الخناصر على أن يضربوه فور بروزه إليهم ، ضربة رجل واحد [1] . وهو يتلو قوله تعالى : [**وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون**] [2] فنامت منهم العيون ، وذهلت عنهم الأحاسيس . فلم يبصروه وهو يخرج ، ولا انتبهوا إليه وهو يحثو على رؤوسهم التراب .

ومضى صلوات الله عليه حتى أتى دار أبى بكر [3] ، ومنها إلى غار ثور . وكم كان حزنه وهو يغادر مكة ، ويُدير ظهره لها . فقد دمعت عيناه ، واشتد وجيب قلبه . ونظر إلى بلده ومسقط رأسه وهو يقول : (**يا مكة ، لأنت أحبُّ بلاد الله إلى الله ، ولأنت أحب بلاد الله إليَّ ، ولولا أن قومك أخرجونى منك ما خرجت**) [4] .

وبعد ثلاثة أيام قضاها فى الغار [5] تحرسه ، وصاحبه أبا بكر من جنود الله تعالى يمامتان بريتان ، وشجرة بالية أسدلت

---

(١) ابن سعد . الطبقات الكبرى ١/٢٢٧ . (٢) سورة يس : ٩ .

(٣) ابن هشام . السيرة النبوية ٢/٦٣ .

(٤) ابن سيد الناس . عيون الأثر ١/٢٣٩ . (٥) ابن الأثير . الكامل ٢/٧٣ .

أغصانها على فم الغار ، وطائفة من العناكب نسجت خيوطها عليه [1] أخذ هو وصاحبه ، والدليل الذى كانا قد استأجراه طريقهم إلى المدينة .

وما أظننى فى حاجة إلى أن أذكر الآيات التى وقعت لهم فى هذا الطريق ، ولا إلى الدلائل التى رأوها فيه . فقد أفاضت المصادر فى ذكرها ، وأكثرت من القول فيها ، والحديث عنها حتى لم يعد يجهلها أحد ممن له معرفة بحياة محمد صلوات الله عليه ، وسيرته العطرة .

ولا خلاف بين المؤرخين ، وكتاب السير فى أن هجرة النبى عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة ، قد كانت فى وقت القيظ الشديد ، والحرارة اللافحة [2] . مما يؤكد أن النبى عليه الصلاة والسلام ، وأبا بكر كليهما قد عانيا فى هذه الهجرة الكثير ، وكابدا فيها من اللأى والكلال ما لا تستطيع احتماله غير العزائم الفَتِيَّة ، والهمم القوية .

وقد نزل النبى عليه الصلاة والسلام ، وصاحبه أول ما نزلا فى قباء [3] . وهى قرية صغيرة فى أعلى المدينة . فأقاما فيها أياماً ، بنى فيها صلوات الله عليه مسجداً [4] . قال الله فيه

---

(١) ابن كثير . السيرة النبوية ٢٦٧/١ .

(٢) ابن هشام . السيرة النبوية ٦٣/٢ .

(٣) ابن سعد . الطبقات الكبرى ٢٣٣/١ .

(٤) المقريزى. إمتاع الأسماع ٤٥/١ .

﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه .... ﴾[1] . وليس معنى هذا أنه أول مسجد يبنى فى المدينة ، وما حولها . فإن الأنصار بعد ما بايعوا رسول الله ﷺ بيعة النساء ليلة العقبة الثانية ، أخذوا يبنون فى أحيائهم المساجد لأداء الصلاة ، وتلاوة القرآن ، وتعلم الأحكام على أيدى القادرين منهم ، والمهاجرين الذين أووا إليهم .

وعلى كل حال فإن النبى عليه الصلاة والسلام قد أقام فى قباء ثلاثة أيام ، وفى بعض الروايات أنه أقام فيها اثنين وعشرين يوماً ، أو أحد عشر يوماً [2] ، وهذا القول أصوب وأرجح . لا لأنه هو القول الوسط وحسب ، بل لأن الأيام الثلاثة لا تكفى لبناء المسجد الذى نوه به القرآن فى سورة التوبة . هذا بالنسبة للقول الأول . أما القول الثانى وهو أن إقامة النبى عليه الصلاة والسلام فى قباء قد استغرقت اثنين وعشرين يوماً ، فلأن أهل المدينة كانوا متعطشين إلى انتقال النبى عليه الصلاة والسلام إليهم ، وإقامته بين أظهرهم .

وأياً ما كان فإنه عليه الصلاة والسلام لما عزم على مغادرة قباء، والإقامة الدائمة فى المدينة ، أرسل إلى أخواله من بنى النجار ، فأقبلوا إليه ، والبشر بادٍ فى وجوههم ، والسيوف مسلولة على

---

(١) التوبة: ١٠٨.

(٢) المقريزى. نفس المصدر السابق ١/٦١-٦٢.

عواتقهم . ولما امتطى صلوات الله عليه ناقته القصواء ، أقبل المهاجرون والأنصار حتى أحاطوا به إحاطة الهالة بالقمر . وجاء بنو عمرو بن عوف وهم أصحاب قباء . وقالوا : « يا رسول الله أتركت دورنا ملالة منا ، أم إيثار الغير علينا » وأخذوا بخطام ناقته يمنعونها من السير . فأجابهم صلوات الله عليه مترضياً لهم أنه ما تركهم ملالة لهم ، ولا إيثاراً لغيرهم عليهم ، وأشار إلى ناقته وقال : دعوها فإنها مأمورة (١) .

وما أشك فى أن أبا أيوب رضى الله عنه قد كان ضمن الحافّين به ، والمستقبلين له ، والراغبين فى أن ينال شرف الإقامة عنده ، والاستراحة فى داره حتى يقيم مسجده ، وبيوت نسائه . ولما حان وقت الارتحال عن قباء ، وأذن مؤذن النبى صلوات الله عليه بالتحرك ، كان الموكب مهيباً يهز العواطف ، ويثير المشاعر . فقد اجتمع فيه أهل المدينة على اختلاف أحيائهم ، وتعدد عشائرهم ، وبطونهم يتقدمهم جميعاً المستوطنون من أهل الحبشة ، وفى أيديهم السيوف البتارة ، والرماح المشرعة . وهم يرقصون ، وينشدون الأهازيج ، تماماً كما كانوا يفعلون فى بلادهم ، وهم يستقبلون وافداً عظيماً ، أو ملكاً كريماً . ومن خلفهم الصبايا ، والصبيان من أبناء الأوس والخزرج وبناتهما ، وهم يغنون ، ويضربون على الدفوف قائلين فى سرور ظاهر ، وفرح غامر (٢) :

---

(١) ابن سعد . الطبقات الكبرى ١/٢٣٦ . (٢) ابن كثير . السيرة النبوية ١/٣٨٢ .

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة مرحباً يا خير داع

وقد بلغت الحفاوة بهذا الموكب وصاحبه صلوات الله عليه، أن أحداً من أهل المدينة لم يتخلف عن شهوده، حتى العواتق من النساء. فإنهن كن ينظرن إليه من فوق الأسطح، ومن خلال النوافذ والطيقان.

أما النبى عليه الصلاة والسلام فقد بلغ البشر منه أقصاه، وأثرت فيه أهازيج الجوارى، والأطفال. فكان ينظر إليهن ويقول: « **أتحبينني يا بنات الأنصار ؟ فيقلن : نعم نحبك يا رسول الله . فيقول :وأنا والله أحبكن** »[1]. ويكرر هذه العبارة مرة بعد مرة.

ويمضى الموكب فى طريقه مهيباً، رهيباً حتى يدخل رانوناء وهو واد بين قباء، والمدينة. فيأمر النبى صلوات الله عليه بالتوقف عن المسير. وينزل هو وأصحابه لأداء الجمعة خلفه. ولم تكن قد أديت من قبل. ويخطب صلوات الله وسلامه عليه أصحابه خطبة بليغة [2] كما هى العادة. فيقول بعد حمد الله

---

(١) ابن كثير. نفس المصدر السابق ٢٨٣/١.

(٢) المقريزى. امتاع الأسماع ٦٢/١.

تعالى ، والثناء عليه : « **أيها الناس . أفشوا السلام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام . تدخلوا الجنة بسلام** » .

ويأمر فيتحرك الموكب ميمماً وجهه شطر المدينة . ويمر صلوات الله عليه على بنى سالم بن عوف ، وبنى بياضة ، وبنى ساعدة ، وبنى عدى ، وبنى مالك ، وبنى النجار . وكلما اقترب صلوات الله عليه من أحد هذه الأحياء ، أو غيرها برز إليه أهله مُرحبين ، يقولون : انزل إلينا يا رسول الله حيث المال والثروة ، والعدد والعُدة . ويأخذون بخطام ناقته ، فيعتذر إليهم ، ويثنى عليهم ، ويشير إلى ناقته ويقول : دعوها فإنها مأمورة [1] .

وتمضى الناقة حتى تبلغ مِربضاً لغلامين يتيمين فى حجر أسعد بن زرارة ، أو أبى أيوب رضى الله عنهما ، فتبرك فيه ، ثم تنبعث ، ثم تبرك مرة أخرى . ويتقدم أبو أيوب رضى الله عنه إلى رحل النبى صلوات الله عليه ، فيحمله ، ويمضى حتى يضعه فى فناء داره [2] .

ويختلف الباحثون فى السبب الذى من أجله آثر صلوات الله عليه الإقامة فى دار الأنصارى النجارى . فيذهب فريق إلى

---

(١) ابن سعد . الطبقات الكبرى ١/٢٣٦ .

(٢) ابن هشام . السيرة النبوية ٢/١٠١ .

أن هذه الدار كانت أقرب الدور إلى المربض الذى بركت فيه ناقة النبى صلوات الله وسلامه عليه .

ويذهب آخر إلى أنه عليه الصلاة والسلام قال : « المرء مع رحله » . وقد كان أبو أيوب كما أسلفنا قد سارع إلى الرحل ، وحمله حتى أدخله منزله (١) .

يبقى رأيان آخران ، أحدهما : أن النبى عليه الصلاة والسلام أقرع بين أصحابه ، وأن القرعة قد خرجت على أبى أيوب (٢) .

وثانيهما : ما ذكره ابن إسحاق فى المبتدأ ، وابن هشام فى التيجان وحاصله (٣) : « أن بيت أبى أيوب الذى نزل فيه رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ، بناه تُبع الأول واسمه تُبان أسعد ، وكان معه أربعمائة حبر فتعاقدوا على ألا يخرجوا منها ، فسألهم تُبع عن السر فى ذلك ، فقالوا : إنا نجد فى كتبنا أن نبياً اسمه محمد هذه دار هجرته ، فنحن نقيم لعلنا نلقاه . فأراد تُبع الإقامة معهم ، ثم رأى أن ذلك لا يصلح له فرجع عن هذه الفكرة وبنى لكل واحد منهم داراً ، واشترى له جارية ثم عتقها ، وزوجها منه ، وأعطاه مالاً جزيلاً ، وكتب كتاباً فيه إسلامه ومنه :

---

(١) ابن سيد الناس . عيون الأثر ٢٥٦/١ .

(٢) ابن حجر ، الإصابة ١٢/٤ .

(٣) سبل الهدى والرشاد ، ٣٩٠/٢ ، محمد الصالحى .

شهدت على أحمد أنـــــه رسولٌ من الله بارى النسم
فلو مد عمرى إلى عمـــره لكنت وزيراً لـــه وابن عـــم
وجاهدت بالسيف أعداءه وفرجت عن صدره كل هـــم

وختمه بالذهب ، ودفعه إلى كبيرهم ، وسأله أن يدفعه إلى النبى ﷺ إن أدركه ، وإلا فلمن أدركه من ولده أو ولد ولده ، وبنى النبى ﷺ داراً ينزلها إذا قدم المدينة . وقد تداول الملاك هذه الدار إلى أن صارت إلى أبى أيوب وهو من ولد ذلك العالِم . وأهل المدينة الذين نصروا النبى ﷺ من أولاد أولئك العلماء . ويقال إن كتاب تُبع الذى فيه الشعر كان عند أبى أيوب حتى دفعه إلى النبى عليه الصلاة والسلام .

ومعنى هذا أن نزول النبى صلوات الله عليه فى الحقيقة قد كان فى داره وليس فى دار أبى أيوب والذى يوازن بين هذه الأقوال الأربعة يتبين له أنها كلها مقبولة عقلاً ، وأن أقواها وأرجحها فى تصورى هو القول الثانى . وهو الذى يقرر أن رسول الله ﷺ قد أقرع بين أصحابه فى هذا الشأن ، وأن أبا أيوب رضى الله عنه قد قرعهم جميعاً (١) .

والحُجة فى هذا هى : أن تَضْيِيف النبى عليه الصلاة والسلام شرف للمنزل الذى سيقيم فيه ، وللصحابى الذى يملكه ، وللعشيرة التى ينتمى إليها ، وللقبيلة التى منها أصله .

---

(١) ابن حجر . الإصابة ١٢/٤ .

وما أظن أن أحداً من الأنصار يستطيع أن يتنازل عن هذا الشرف فى يسر ، ولا أن يعطيه غيره فى سهولة . ولا يعدل هذا القول الثانى فى رأيى غير القول الرابع ، وهو أن الدار التى أقام فيها صلوات الله عليه حتى أقام مسجده ، وبنى حجرات نسائه . ليست دار أبى أيوب فى الحقيقة . وإنما هى داره هو التى اشتراها له تُبع الأول [1] . فإن ورود اسم النبى عليه الصلاة والسلام فى الأسفار السماوية السابقة على القرآن الكريم حقيقة لا سبيل إلى إنكارها ، ولا إلى الشك فيها . فقد سجلها الذكر الحكيم فى أكثر من سورة ، وأكثر من آية . منها ما جاء فى سورة الأعراف من قوله تعالى : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ...** ﴾[2] .

وما جاء فى سورة الفتح من قوله سبحانه : ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ...** ﴾[3] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٣/٣٩٠ . (٢) الأعراف : ١٥٧ . (٣) الفتح : ٢٩ .

أضف إلى هذه وتلك، قوله عز وجل فى سورة الصف:

﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾[1].

فأنت ترى من هذه الآيات الكثيرة أن الأسفار السماوية السابقة لم تحتو اسم محمد ﷺ وحسب، وإنما احتوت اسمه، وصفته وأنت ترى أن هذه الأسفار لم تقتصر على هذا وحسب، وإنما شملت أصحابه صلوات الله عليه، والمزايا والعلامات التى تميزهم عن غيرهم.

وعلى هذا الأساس فإن ما ذكره الأحبار لتُبع الأول غيرُ بعيد عقلاً ونقلاً، وإن تصديقه لهؤلاء الأحبار، وشراءه للدار التى سيقيم فيها محمد صلوات الله عليه إذا هو هاجر إلى المدينة غير بعيد كذلك عن العقل والنقل، إذا صح السند، وسلم من القدح والجرح. وصاحب سبل الهدى والرشاد، وهو الذى نقل هذا الخبر عن كل من ابن إسحاق، وابن هشام لم يذكر لنا هذا السند حتى ننظر فيه، ونعرف مدى قوته أو ضعفه.

وأمر آخر لا سبيل إلى إغفاله وهو: أن هذا الخبر لو كان صحيحاً لذاع وانتشر، وكان له فى حينه دوىٌ يدفع المؤرخين إلى تسجيله، والتعليق عليه. ولم يحدث من ذلك شىء.

---

(١) الصف: ٦.

وأمر ثان وهو : أن أبا أيوب رضى الله عنه قد زار عامل عليٍّ رضى الله عنه على البصرة ، وهو عبد الله بن عباس . فأنزله فى داره ، ثم وهبها له بعد أن خرج منها هو وأهله ، وقال له : هذه دارك التى تنازلت عنها للنبى [1] عليه الصلاة والسلام حتى أقام مسجده ، وبنى بيوت نسائه . ولو أن دار أبى أيوب قد كانت هى الدار التى اشتراها تُبع الأول للنبى عليه الصلاة والسلام ، وأنها أخذت تنتقل من مالك إلى مالك حتى آلت إلى أبى أيوب ، ما جاز لابن عباس أن يعوضه عنها لأنها دار النبى عليه الصلاة والسلام ، وليست دار هذا الصحابى الكريم .

ومهما يكن من شىء فإن النبى عليه الصلاة والسلام قد نزل من دار أبى أيوب فى أسفلها . وأقام هو وزوجه أُم أيوب فى أعلاها [2] . والسبب فى هذا هو - أن زوَّاره صلوات الله عليه قد كانوا كثيرين . وكانت زيارتهم له فى أوقات كثيرة أيضاً . فكان أسفل الدار هو المكان المناسب . غير أن أبا أيوب لم تسترح نفسه إلى أن يكون فى أعلى الدار ، ويكون الرسول فى أسفلها . فكلمه صلوات الله عليه فى ذلك ، ومازال به حتى أقنعه [3] .

---

(١) ابن الأثير . أسد الغابة ٨/٩٥ .

(٢) ابن كثير . البداية والنهاية ٣/١٩٠ .

(٣) ابن كثير . البداية والنهاية ٣/١٩٠ .

وقد كان وجهاء الأنصار من الأوس والخزرج يرسلون القصاع إلى النبى عليه الصلاة والسلام كل يوم ، وكانت قصعة سعد ابن عبادة لا ينقطع إرسالها ، حتى بعد أن غادر دار أبى أيوب إلى حجراته التى بناها لنفسه ، ولنسائه (١) . وكانت من الضخامة والاتساع بحيث لم يكن يستطيع حملها أقل من خمسة رجال من ذوى الجلد والقوة .

والسبب فى هذا هو أن النبى عليه الصلاة والسلام لم يكن يأكل من هذه القصعة وحده ، وإنما كان يشاركه الطعام من الخمسة إلى الستة عشر من أصحابه علاوة على أبى أيوب وأم أيوب رضى الله عنهما .

فقد ذكر الرواة أن الطعام كان عندما يعود من عند النبى عليه الصلاة والسلام ، كان يلتمس الزوجان كلاهما موضع أصابعه عليه الصلاة والسلام فيضعان أصابعهما ، ويأكلان حباً فى الرسول ﷺ ، وابتغاءً للبركة منه .

وقد سئلت أم أيوب رضى الله عنها عن أحب الأطعمة إلى النبى عليه الصلاة والسلام فقالت : إنه لم يكره طعاماً قط إلا إذا كان مما ينفِّر الملائكة . واستدلت على هذا بطعام قُدِم إليه . فلما عاد من عنده لم تجد هى وزوجها أثر أصابعه صلوات الله عليه فيه فأتاه عليه الصلاة والسلام أبو أيوب وقال له : يا رسول الله

(١) المقريزى . إمتاع الأسماع ١/ ٦٣ .

لقد التمست مواضع أصابعك على هذا الطعام فلم أجدها . فقال صلوات الله عليه : إن فى هذا الطعام بصلاً وإنى لم آكل منه من أجل المَلَكَ . أما أنتم فكلوا [1] .

وتقول أم أيوب رضى الله عنها وهى تتحدث عن الأطعمة التى كان يؤثرها صلوات الله عليه على غيرها : إنا كنا نصنع له الهريسة ، فكان يُقبل عليها ، وكان الطفيشلُ من أحب ما كان يتناول من الأطعمة ، ومن أجل هذا فإننا كنا نكثر من تقديمه إليه .

وما أرتاب فى أن المدة التى أقامها النبى صلوات الله عليه فى دار أبى أيوب رضى الله عنه قد كانت ذاخرة بالحركة ، عامرة بالفائدة . فقد كان أصحابه عليه الصلاة والسلام يأتون إليه فيها دُبر كل صلاة ليتحدثوا إليه ، وينهلوا من حياض نصحه ، ويشاركوه الطعام إذا حان وقته ، ولا يكادون يفارقونه إلا عند راحته أو نومه .

وقد اختلف الرواة فى تقدير هذه المدة . والذى تطمئن إليه النفس ، ويستريح إليه القلب أنها كانت سبعة أشهر [2] .

وقد شاء الله أن يشهد أبو أيوب رضى الله عنه المشاهد كلها مع النبى [3] صلوات الله وسلامه عليه . ففى غزوة بدر كان واحداً من الأنصار الذين شدُّوا عزم النبى عليه الصلاة والسلام

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٣/١٩٠-١٩١ .

(٢) ابن كثير . البداية والنهاية ٣/١٩١ .

(٣) ابن حجر . الإصابة ٤/٥ .

عندما فاتته العير ، وأيقن أن النفير قد صار أمراً لا معدل عنه ، ولا سبيل إلى تجاوزه . فقد وجه صلوات الله وسلامه عليه نظره إليهم ، وقال لهم : **أشيروا علىّ أيها الناس فقالوا : يا رسول الله نحن أهل الحرب ، ورثناها كابرا عن كابر، فامض لما أمرك الله ، ونحن وراءك ، والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك .ما تخلف منا أحد .والله لا نقول لك ما قاله بنو إسرائيل لموسى :اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، بل نقول اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون** (1) .

ولما اشتعل لهيب القتال ، وتنادى الكُماة والأبطال ، وراحت رياح الموت تعصف بالنفوس عصف الزوابع بأوراق الشجر ، كان **أبو أيوب** رضى الله عنه ضمن الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فلم يهن له عزم ، ولم يهدأ له سيف حتى ولى المشركون الأدبار ، وأشرقت شمس الظفر والانتصار . وعاد إلى المدينة بين المهاجرين والأنصار يشكرون الله على ما أولاهم من نعمة ، ويحمدونه على ما أفاض عليهم من عزة ورفعة .

وكذلك كان شأنه رضى الله عنه فى أُحد ، والخندق ، وغيرهما من الغزوات (2) التى قادها النبى صلوات الله وسلامه عليه .

---

(1) ابن سيد الناس . عيون الأثر ٢٢٨/١ .   (2) ابن الأثير . أسد الغابة ٢٥/٦ .

والتاريخ وإن لم يسجل لأبى أيوب رضى الله عنه الكثير فى هذه المعارك والوقائع ، فإنه قد ألمح إليه بعبارات ترفع قدره ، وتُعلى ذكره ، وتوضح مدى حبه لنبيه ، واستعداده الذى لا حد له لفدائه ، والموت دونه .

ونحن نسوق من ذلك إلى القارىء ما يجعله يشاركنا هذا الرأى فيه ، ويشاطرنا هذه الفكرة عنه . خرج النبى عليه الصلاة والسلام إلى خيبر فى جيشه الذى كان قد شَهد معه صلح الحديبية . وبعد معارك مريرة وقاسية خاضها مع اليهود حول حصونهم السامقة ، وقلاعهم الحصينة ، استطاع قهرهم ، وإذلالهم ، وإرغامهم على الخضوع له ، والانقياد لشروطه .

يقول المؤرخون وكتاب المغازى : إن أحد حصون يهود وهو حصن الغموص قد كان ملكاً لكنانة والربيع ابنى أبى الحقيق ، وإن النبى عليه الصلاة والسلام قد أحضرهما فور فتح هذا الحصن . وسألهما عن كنز بنى النضير الذى حملاه معهما بعد إجلاء هذا الحى عن المدينة . وكان عبارة عن حُلى وأوان من الذهب ، كان العرب يستعيرون منها فى المناسبات السارة ، والأفراح العظيمة . وكانت فى جلد حمار ، فلما كثرت وضعها كنانة والربيع فى جلد جمل . ولكى لا يستولى النبى عليه الصلاة والسلام وأصحابه عليها فإن الرجلين حملاها إلى خربة ، ودفناها فيها . وبدلاً من أن يصدق كنانة والربيع النبى عليه الصلاة والسلام ، ويدلاه على هذا الكنز ، فإنهما قد أخفياه ، وأصرا على إنكاره ، وادعيا أنه ذهب فيما ذهب عند الخروج من

المدينة والاستقرار فى خيبر [1] .

وكان صلوات الله عليه قد أخبر عن الكنز ، والمكان الذى وُورِىَ فيه فقال للرجلين وما جزاؤكما إذا ظهر كذبكما ، وانكشفت حقيقة أمركما ؟ قالا : أن تهراق دماؤنا ، وتسبى ذرارينا ونساؤنا . فأشهد صلوات الله عليه المسلمين واليهود كليهما على كلامهما وأحضر سعية أو ثعلبة بن سلام بن أبى الحقيق ، وسأله عما يعرفه عن الكنز . فذكر أنه رأى كنانة وهو يطوف بخربة كل غداة . فأمر صلوات الله عليه الزبير أن يخرج معه فى نفر من المسلمين إلى هذه الخربة . فأعملوا فيها المعاول ، وإذا هم يرون جلد جمل قد مُلِىء حلياً وأوانى من الذهب ، ولما رأى كنانة والربيع الكنز أُرتج عليهما ، ولم يحيرا جوابا فأمر صلوات الله عليه فضُرِبَ عنقاهما [2] . وكان كنانة زوجاً لصفية [3] بنت حُيى بن أخطب فوقعت فى السبى [4] ، فآلت إلى دحية الكلبى [5] رضى الله عنه . وقد اختلف الرواة فى ذلك . فذهب فريق إلى أنها وقعت فى سهمه ، وذهب آخر إلى أنه أتى النبى

---

(١) الواقدى. المغازى ٢/٦٧١-٦٧٣ .

(٢) المقريزى. إمتاع الأسماع ١/٢٤٢ .

(٣) ابن عبد البر . الاستيعاب ٤/٣٤٦ .

(٤) ابن هشام . السيرة النبوية ٣/٢١٣ .

(٥) ابن الأثير . أسد الغابة ٧/١٦٩ .

عليه الصلاة والسلام وقال له : يا رسول الله إننى فى حاجة إلى جارية فأعطنى واحدة من نساء يهود اللائى وقعن فى الأسر وكان صلوات الله عليه لا يسأله أحد من أصحابه شيئاً إلا أعطاه إياه إذا لم يكن فيه ضرر . فقال له : اذهب إلى الجوارى وخذ منهن من تروق لك . فأخذ دحية صفية بنت حُيىّ ، فجاءه أحد أصحابه وقال له : يا رسول الله أعطيت صفية بنت حُيىّ سيدة بنى النضير ، وبنى قريظة دحية الكلبى ، ووالله إنها لا تصلح إلا لك . فأرسل إليه واشتروها منه ، وأعطاه ابنة عمها بدلاً منها (1) .

وسواء أصحت هذه الرواية ، أم أن سابقتها هى الصحيحة ، فإن النبى عليه الصلاة والسلام قد خَيَّر صفية بين الإسلام والزواج منه ، وبين العتق والعودة إلى أهلها . فأجابته رضى الله عنها : يا رسول الله لقد هويت الإسلام ، وصدقت بك قبل أن تدعونى ، حيث صرت إلى رحلك وما لى فى اليهودية أرب ، ولا لى فيها والد ، ولا أخ . وخيَّرت بين الكفر ، والإسلام . فالله ورسوله أحب إلىّ من العتق وأن أرجع إلى قومى (2) .

وملكت هذه الكلمات الحلوة على نبى الله تعالى مشاعره . فأمسكها لنفسه وجعلها ضعف نسائه بعد تحريرها (3) . ولم

---

(1) محب الدين الطبرى . السمط الثمين ص ١١١ .

(2) الدمياطى . نساء رسول الله ص ٧٩ .

(3) ابن حزم . جوامع السيرة ص ٢٥٤ .

يغادر صلوات الله عليه خيبر حتى كان قد تزوجها . وقد أراد المسلمون أن يتأكدوا مما إذا كانت صفية ما تزال فى ملك يمينه صلوات الله عليه وسلم ، أم أنها قد أصبحت إحدى أزواجه . وقال بعضهم لبعض : إن كانت زوجة فسوف يلقى عليها الحجاب . وإلا فسوف لا تختلف عن سواها من الجوارى والإماء . وقُدم البعير إليه صلوات الله عليه ليركبه فوضع رجله لها لتركب ، فأبى عليها أدبُها أن تضع قدمها على فخذه عليه الصلاة والسلام ووضعت ركبتها ، فحملها حتى أجلسها على البعير . وألقى ثوبه عليها فستر وجهها وظهرها ، فعلم الناس أنها قد صارت ضمن أزواجه [1] .

ومضى الركب حتى إذا انتهى إلى تبار أراد صلوات الله عليه أن يُعرس بها ، فأبت . فأسرها فى نفسه ولم يسألها عن العلة فى امتناعها . وواصل الركب السير حتى نزل فى صهباء. فعرض صلوات الله عليه وسلم على صفية ما كان قد عرضه عليها فى تبار . فقبلت ورحبت [2] . ويقول المؤرخون وكتاب السير : إن النبى عليه الصلاة والسلام سهر الليل كله يتحدث إليها ، وكان مما قاله لها : ما حملك على الذى صنعت حين أردت أن أنزل المنزل الأول فأدخل بك ؟ فأجابته قائلة : خشيت عليك

---

(١) ابن كثير . البداية والنهاية ١٩٢/٤ .

(٢) ابن سعد . الطبقات الكبرى ١٣٩/٨ .

يا رسول الله قرب يهود ، فلما بعدت أمنتُ عليك [1] . ورأى صلوات الله عليه فى وجهها أثر خضرة قريباً من عينها . فقال لها : ما هذا ؟ قالت : يا رسول الله كانت رأسى فى حجر كنانة بن أبى الحقيق وأنا عروس له ، فنمت فرأيت قمراً أقبل من يثرب حتى وقع فى حجرى فلما استيقظت ذكرت ذلك لزوجى كنانة ، فقال : أتتمنين أن تكونى تحت محمد ملك الحجاز ؟ ورفع يده فضرب وجهى فلم يزل ذلك الأثر من تلك الضربة . وروى أنها رأت هذه الرؤيا مرتين ، وأنها قصت إحداهما على زوجها ، والأخرى على أبيها [2] .

وأياً ما كان فإن أبا أيوب رضى الله عنه قد كان حاضراً هذه الأحداث ، وكان مشاركاً فيها . ولأنه كان لا يشغله عن النبى عليه الصلاة والسلام شاغل ، ولا يصرفه عن التفكير فيه صارف . فإنه خشى عليه ﷺ من غدر اليهود وكيدهم . وهجس فى نفسه هاجس : لماذا لا تُسئ ابنةُ حُيى إلى النبى ﷺ فى نفسه ؟ ألم يقتل أباها وأخاها ، وزوجها ؟ ألم يُبر جماعتها ؟ ألم يستأصل قومها ؟ أليست المرأة التى وضعت السم فى الشاة له ولأصحابه فى هذه الغزوة من بنات جنسها ؟ فلما سألها عن

---

(١) البلاذرى . أنساب الأشراف ٤٤٣/١ .

(٢) الطبرى . تاريخ الرسل والملوك ١٤/٣ ، ابن سيد الناس . عيون الأثر ٣٩١/٢ .

السبب الذى من أجله اقترفت هذا الإثم ، وتورطت فى هذه الخطيئة قالت فى صفاقة : قلت فى نفسى إن كنت نبياً حماك الله من هذا السم ، وإن كنت ملكاً ثأرتُ منك لما قتلت من أهلى ، وخيرة عشيرتى [١] . شغلت هذه الهواجس بال أبى أيوب ، وأثارت مشاعره ، وخواطره . وحاول النوم فلم يجد إليه سبيلاً . ورأى نفسه يخرج من رحله ويمضى حتى يأتى رحل النبى صلوات الله عليه وسلم ، فيُسلُّ سيفه ، ويشرع رمحه ، ويسهر الليل كله على كثب منه صلوات الله وسلامه عليه ، ويصبح الصبح ، ويحس النبى عليه الصلاة والسلام بحركة على مقربة من خبائه ، فيقول ما هذا ؟ ويخرج ليرى ما يحدث ، ويشاهد أبا أيوب ، فيدور بينهما هذا الحوار : يا أبا أيوب ما حملك على ما صنعت ؟ ويجيب أبو أيوب : يا رسول الله ، جارية حديثة عهد بكفر ، وكنتَ قد صنعت بأهلها ما صنعت ، حيث قتلت أباها وأخاها وزوجها وعامة عشيرتها ، فلم آمنها عليك وقلتُ إن تحركت كنت قريباً منك . وهزَّ هذا الحب عواطف النبى صلوات الله وسلامه عليه وحرك حسه ووجدانه . فشكر أبا أيوب ، وأثنى عليه وقال فى دعائه له : **رحمك الله يا أبا أيوب . مرتين . وحفظك كما حفظتنى** [٢] .

---

(١) ابن الأثير . الكامل ١٥٠/٢ .

(٢) ابن كثير . البداية والنهاية ٤٠٦/٤ .

وهكذا كان الرجل فى الغزوات التى سبقت غزوة خيبر ، والغزوات التى جاءت بعدها قريباً من النبى عليه الصلاة والسلام ، يقيه بنفسه ، ويدرأ عنه بسيفه ، ورمحه ، ويستعذب الموت فى سبيله ، ولا يتمنى من الحياة غير عطفه عليه ، ورضائه عنه .

وكانت الوشائج والصلات التى **تربط بينه عليه الصلاة والسلام ، وبين أبى أيوب من القوة والمتانة** بمكان حتى إن النبى ﷺ كان يتصرف فى داره وكأنها داره ، أو كأنها من الممتلكات العامة التى يتصرف فيها صلوات الله وسلامه عليه كما يشاء ، فيُنزلها من الوفود من أحب ، ويُضَيِّف فيها من أراد [1] .

روى ابن سعد فى طبقاته قال : كتب النبى عليه الصلاة والسلام إلى أهل نجران فخرج إليه وفدهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم نصارى ، فيهم العاقب وهو عبد المسيح ، رجل من كندة . وأبو الحارث بن علقمة ، رجل من بنى ربيعة ، وأخو كُرز ، والسيد وأوس ابنا الحارث ، وزيد بن قيس ، وشيبة وخويلد ، وخالد ، وعمرو ، وعبيد الله ، وفيهم ثلاثة نفر يتولون أمورهم ، والعاقب ، وهو أميرهم وصاحب مشورتهم والذى يصدرون عن رأيه ، وأبو الحارث ، أسقفهم وخيرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم ، والسيد ، وهو صاحب رحلتهم ، فتقدمهم كرز أخو أبى الحارث وهو يقول :

---

(١) ابن سعد . الطبقات الكبرى ١/٣٥٨-٣٥٩ .

إليك تغدو قلقاً وضينُها معترضاً فى بطنها جنينُها
مخالفاً دين النصارى دينهـا

فقدم على النبى ﷺ ، ثم قدم الوفد بعده ، فدخلوا المسجد عليهم ثياب الحيرة ، وأردية مكفوفة بالحرير ، فقاموا يصلون فى المسجد نحو المشرق ، فقال رسول الله ﷺ : دعوهم ، ثم أتوا النبى عليه الصلاة والسلام ، فأعرض عنهم ولم يكلمهم ، فقال لهم عثمان : ذلك من أجل زيكم هذا ، فانصرفوا يومهم ذلك ، ثم غدوا عليه بزى الرهبان فسلموا عليه ، فرد عليهم ودعاهم إلى الإسلام ، فأبوا . وكثر الكلام والحجاج بينهم ، وتلا عليهم القرآن ، وقال رسول الله ﷺ : إن أنكرتم ما أقول لكم فهلُمَّ أباهلْكُم .

فانصرفوا على ذلك ، فغدا عبد المسيح ورجلان من ذوى رأيهم على رسول الله ﷺ ، فقال : قد بدا لنا أن لا نباهلك فاحكم علينا بما أحببت نعطك ونصالحك ، فصالحهم على ألفى حُلة ، ألف فى رجب ، وألف فى صفر ، وعلى عارية ثلاثين درعاً ، وثلاثين رمحاً ، وثلاثين بعيراً ، وثلاثين فرساً ، إن كان باليمن كيد ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيعهم ، لا يغير أسقف عن سُقيِّفاه ، ولا راهب عن رهبانيته ، ولا واقف عن وقفانيته ، وأشهد على ذلك شهوداً ، منهم أبو سفيان بن حرب ، والأقرع بن حابس ، والمغيرة بن شعبة ،

فرجعوا إلى بلادهم فلم يلبث السيد والعاقب إلا يسيراً حتى رجعا إلى النبى ﷺ، فأسلما وأنزلهما دار أبى أيوب الأنصارى [(١)].

وواضح من هذا النص الذى أوردناه من الطبقات الكبرى لابن سعد ، أن النبى عليه الصلاة والسلام ، قد أسكن السيد والعاقب كليهما دار أبى أيوب ، رضى الله عنه دون إذن منه ، ولا استشارة له . ولا معنى لهذا إلا أنه صلوات الله وسلامه عليه لم يكن يفرق بين داره ، ودار أبى أيوب ، وهذا دليل ساطع ، وحُجة ظاهرة على أن العلاقة بينهما كانت من الشدة والقوة بمكان .

ومهما يكن من شىء ، فإن أبا أيوب رضى الله عنه كان أحد كبار أصحابه صلوات الله وسلامه عليه المقربين إليه ، والمتمكنين من قلبه ، والذين لا يُستغنى عنهم فى أمر ، ولا يُفْتَتُون فى مشورة . وما أجمعت المصادر على شىء إجماعها على أن أبا أيوب كان موضع تكريم النبى عليه الصلاة والسلام ، ومحل ثقته وأنه رضى الله عنه لم يفارقه فى معركة ، ولا غاب عنه فى مشهد [(٢)] ، فإذا أذَّن مؤذِّنه صلوات الله وسلامه عليه ، حَىَّ على الجهاد ، حمل روحه على كفه ، واستودع الله زوجه ، وولده ، وأسرع إلى الانخراط فى الجند ، إن كان فى المقدمة . كان فى المقدمة ، وإن كان فى السَّاقة ، كان فى السَّاقة ،

---

(١) الطبقات لابن سعد جـ١ ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ .

(٢) ابن حجر . الإصابة ٥/٤ .

لا يتعطش إلى منصب قيادى ، ولا يَتُوق إلى مرتبة رئاسية ، أو سياسية ، وربما أثر أن يكون جندياً مجهولاً ، إن قال لا يؤبهُ لقوله ، وإن شفع لا يُشفع ، نصب عينيه قوله عليه الصلاة والسلام : « **تعس عبد الدينار وعبد الدرهم ، وعبد القطيفة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه ، فى سبيل الله ، إن كان فى الساقة ، كان فى الساقة ، وإن كان فى المقدمة ، كان فى المقدمة ، إن قال لا يؤبه لقوله ، وإن شفع لا يُشفَّع** » .

ومن أجل هذا كان أبو أيوب رضى الله عنه جليل القدر فى عين النبى عليه الصلاة والسلام ، وفى عيون أصحابه لا فرق فى ذلك بين خاصتهم وعامتهم ، وكبارهم ، والذين لم يبلغوا هذه المكانة الرفيعة منهم . وإذا كان أبو أيوب رضى الله عنه ، قد كان من النبى عليه الصلاة والسلام بمنزلة ظلِّه ، من أول يوم أشرق نوره فى شتى أنحاء المدينة ، فإنه قد كان فى أيام مرضه الذى مات فيه ، أشد قرباً ، وأكثر دُنُوًّا منه ، وإنى لأتخيله ، وقد اشتد بحبيبه وصديقه صلوات الله وسلامه عليه ، المرض ، وبرِحت به العلة ، وثَقل حتى لم يعد يقوى على مبارحة حجرته ، والجلوس إلى أصحابه . أتخيله واجم الوجه ، دامع العين ، شريد الخاطر ، لا يهنأ له طعام ولا شراب ، ولا يطيب له نوم ، ولا صحو. حَسبى عليه الحزن ، ونال منه الأسى والهم ، ولم يعد لديه فرق بين ظاهر هذه الأرض ، وباطنها ، وكيف لا ؟ وهو يرى النور الذى

أضاء له الطريق ، يخفُتُ قليلاً ، قليلاً ، ويشاهد الرائد الذى يدله على سعادة دنياه وأخراه ، يختفى رويداً ، رويداً ، لقد انتهى أجَلُ محمد صلوات الله وسلامه عليه ، أو كاد ، وما هى إلا سويعات حتى يُلبىّ النداء ، ويجيب الدعاء ، ويرتفع إلى الرفيق الأعلى ، ويحين الوقت الذى يصبح فيه أبو أيوب ويُمسى ، فلا يرى وجهه ، ولا يسمع صوته ، ولا ينعش قلبه بَرد حديثه ، وجمال منطقه ، وحُسن توجيهه ، ونصحه . وكيف يستطيع الرجل صبراً على احتمال هذه الخواطر الحزينة التى ألحّت عليه ، وهذه المشاعر الكئيبة ، التى أظلمت الدنيا من حوله .

الفصل الثانى
فى عهدى
أبى بكر وعمر

لقد كان أبو أيوب أثناء مرضه عليه الصلاة والسلام ، أشبه ما يكون بشجرة مورقة ، فهبت عليها رياح الخريف ، فتحاتت أوراقها ، وتناثرت أزهارُها ، وصارت كعجوز ذهبت نُضْرتها ، وحلت كُدرتها ، وولّى شبابها ، ولم يعد فيها ما يسر العين ، أو يبهج الخاطر . ويموت صلوات الله وسلامه عليه ، فيلف الحزن أبا أيوب ، ولا يرى مما يحيط به من مباهج الدنيا ، وزينة الكون إلا عيوناً تبكى ، وأكباداً تتنزى وتتقطع ، فقد غمر الأسى قلوب الناس واعتصر عواطفهم ، ومشاعرهم ، حتى أفقد العقلاء صوابهم ، وأذهل أصحاب العقول عن عقولهم ، ودفع عمر وكثيرين غيره إلى أن يستلُّوا سيوفهم ويصيحوا : والله ما مات محمد ، وإنما ذهب لمناجاة ربه كما ذهب موسى ، وعما قليل يعود ، وستقطع أيدى وأرجل رجال نافقوا وقالوا : إنه قد [1] مات وتتجلى حكمة أبى بكر فى هذا الوقت العصيب ، كما يتجلى النجم من بين أطباق الظلام ، ويقول : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حَىٌّ لا يموت [2] . **﴿ وما محمدٌ إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين ﴾** [3] .

---

(١) ابن الأثير . الكامل ٢/٢١٩ .   (٢) ابن كثير . البداية والنهاية ٥/٢٠٤ .

(٣) سورة آل عمران : ١٤٤ .

وتبدد هذه الكلمات الهادئة العاقلة ، شرود الناس وتعيد إليهم وعيهم ، واتزانهم ، كما تبدد الأقباس سحائب الظلام ، فتفيئ العافية إلى الحياة ، ويسْرى فى أرجائها دفء العمل ، وضياء النشاط . ويعود الرشد إلى أبى أيوب ، كما عاد إلى غيره من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام ويحمد الله على أنه صلوات الله وسلامه عليه قد غادر هذه الدنيا ، وهو عنه راضٍ وبه قرير عين .

ويشغل أهل بيت النبى صلوات الله وسلامه عليه إجراءات غسله ، والصلاة عليه ، ثم مواراته فى جدثه ، طبقاً لوصيته صلوات الله وسلامه عليه . وقد سجل الطبرى ، وغيره هذه الوصية فى تاريخه ، نقلاً عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : نعى إلينا نبينا وحبيبنا نفسه قبل موته بشهر ، فلما دنا الفراق جمعنا فى بيت أُمنا عائشة ، فنظر إلينا وشدّد ، فدمعت عينه ، وقال : مرحباً بكم ، رحمكم الله ! آواكم الله ! حفظكم الله ! رفعكم الله ! نفعكم الله ، وفقكم الله ، نصركم الله ، سلمكم الله ، قبلكم الله . أوصيكم بتقوى الله ، وأوصى الله بكم ، وأستخلفه عليكم ، وأوديكم إليه إنى لكم نذير وبشير ، لا تعلوا على الله فى عباده وبلاده ، فإنه قال لى ولكم **﴿ تلك الدارُ الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾** (1). وقال : **﴿ أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ﴾** (2) . فقلنا :

---

(1) القصص : ٨٣ .

متى أجلك يا رسول الله ؟ قال : قد دنا الفراق ، والمنقلب إلى الله ، وإلى سدرة المنتهى . قلنا : فمن يغسلك يا نبى الله ؟ قال : أهلى الأدنى فالأدنى . قلنا : ففيم نكفنك يا نبى الله ؟ قال : فى ثيابى هذه إن شئتم ، أو فى بياض مصر ، أو حلة يمانية ، قلنا : فمن يصلى عليك يا نبى الله ؟ قال : مهلاً غفر الله لكم ، وجزاكم عن نبيكم خيراً ، فبكينا وبكى النبى ﷺ ، وقال : إذا غسلتمونى وكفنتمونى فضعونى على سريرى فى بيتى هذا على شفير قبرى ، ثم اخرجوا عنى ساعة ، فإن أول مَن يصلى علىّ جليسى وخليلى جبريل ، ثم ميكائيل ، ثم إسرافيل ، ثم ملك الموت مع جنود كثيرة من الملائكة بأجمعها ، ثم ادخلوا علىَّ فوجاً فوجاً ، فصلوا علىّ وسلموا تسليماً ولا تؤذونى بتزكية ، ولا برنة ، ولا صيحة ، وليبدأ بالصلاة علىَّ رجال أهل بيتى ، ثم نساؤهم ، ثم أنتم بعد . أقرئوا أنفسكم منى السلام ، فإننى أشهدكم أنى قد سلمت على من بايعنى على دينى من اليوم إلى يوم القيامة قلنا : فمن يدخلك فى قبرك يا نبى الله ؟ قال : أهلى مع ملائكة كثيرين يرونكم من حيث لا ترونهم »[1] .

وواضح من هذه الوصية الجامعة ، أن النبى عليه الصلاة والسلام قد توقع الموت من قبل أن يرحل عن هذه الدنيا بشهر ، وأنه جمع أصحابه والمراد كبارهم بطبيعة الحال ، فى بيت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وراح يودعهم ، ويربت على

(١) تاريخ الرسل والملوك (للطبرى) ج ٣ ص ١٩١ ، ١٩٢ .

ظهورهم ، ويؤكد لهم أن أجَلَهُ قد انتهى أو كاد وأن مَنيته قد حانت أو اقتربت ، وأنه أتاح لهم أن يسألوه عما بدا لهم ويستفسروا منه عما خفى عليهم . وكان صلوات الله وسلامه عليه يجيبهم ولا يطوى شيئاً عنهم . سألوه عن غسله ، وتكفينه ، وسألوه عمن يصلى عليه ؟ ومَن يدخله شفير قبره . وكان على الرغم من شدة الموقف ، ولذع الفراق يُميط الأستار عن الأسرار الخفية التى علمه الله إياها ، وحجبها عن غيره . من ذلك ما ذكره صلوات الله عليه من أن أول من سيصلى عليه خليله جبريل ثم ميكائيل ، ثم إسرافيل ، ثم ملك الموت ، فى ملائكة لا يحصيهم العدد ولا يحيط بهم الحساب (١) .

وما أشك فى أن أبا أيوب - رضى الله عنه - قد كان حاضراً هذا الاجتماع ، فقد كان من كبار أصحابه ، وخاصة خاصته - عليه الصلاة والسلام - وما كاد صلوات الله وسلامه عليه ، يلفظ آخر أنفاسه بين نحر عائشة رضى الله عنها ،وسَحْرِها (٢). كما تقرر الروايات ، حتى أخذ أهل بيته - رضى الله عنهم - ومعهم الصديق ، والفاروق ، وغيرهما من كبار أصحابه يتخذون الأهبة لغسله ، وتكفينه ، والصلاة عليه ، ثم إنزاله إلى مثواه الأخير . وكان المهاجرون على كثب منه فى المسجد ،

---

(١) الطبرى . نفس المصدر السابق ١٩٢/٣ .

(٢) ابن كثير . البداية والنهاية ٢٠٢/٥ .

ينتظرون دورهم فى توديعه صلوات الله وسلامه عليه ، والصلاة على جسمانه - عليه الصلاة والسلام - وإذا رجلان صالحان يُقْبِلان من ناحية بنى ساعدة ، حتى إذا اقتربا من حجرة أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - سألا : أين الصديق ؟ وأين الفاروق؟ فلما رأياهما قالا : يا معشر المهاجرين أدركوا أمركم قبل أن يخرج من بين أيديكم ، إن الأنصار قد اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة ، يريدون أن يُؤَمِّروا سعد بن عبادة ، فَخَفَّا الصديق والفاروق ومعهما أبو عبيدة عامر بن الجراح ، حتى أتوا القوم وهم مجتمعون تحت الظُلة (١) .

وكان سعد بن عبادة وَجِعًا مزملاً ، وما إن دخل هؤلاء الثلاثة على الأنصار حتى تكهرب الجو ، وراح الخطباء يوردون الحُجج التى يستندون إليها على أنهم أهلٌ للخلافة ، وأحق بها ممن سواهم من العرب ، لا فرق فى ذلك بين المهاجرين ومن عداهم من العشائر والبطون ، فهم الذين آووا ونصروا ، وهم الذين جاهدوا وناضلوا حتى كانت كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى . ولولاهم ما عُبد الله وحده ، ولا بُنيت بيوته ليذكر فيها اسمه ، ثم إن هذا البلد - يعنون المدينة - بلدهم ، وهذه الرحاب المبسوطة ، رحابهم ..... إلى آخر ما تضمنته خطبهم الملتهبة ، ومقالاتهم المشتعلة (٢) .

---

(١) ابن الأثير . الكامل ٢/ ٢٢٠ .

(٢) ابن كثير . البداية والنهاية ٥/ ٢٠٧ .

وأراد عمر ، وكان قد زوَّق في نفسه كلاماً ، أنْ يقارعهم الحُجة ، ويقاسمهم البرهان . لكن أبا بكر - رضي الله عنه - أشار إليه ، فكفَّ عما كان يريد أن يفعل ، وانتظر الصديق حتى أفرغ القوم ما عندهم ، وهدأت عواطفهم ومشاعرهم ، ثم قال لهم :يا معشر الأنصار ما قلتم في أنفسكم قولاً إلا وأنتم له أهل، ولو شئتم أن أزيدكم عليه لزدتكم . قال تعالى : ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ (١) .فنحن الأمراء، وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون في مشورة ، ولا تقضى بدونكم الأمور (٢).

وأتبع هذا التعليل الديني ، بتعليل آخر سياسي ، فذكر أن قريشاً أوسط العرب أنساباً ، وأكثرها أحساباً ، وأن العرب لا ترضى أن يكون هذا الحق إلا لها .

وقام عمر ، فأكد أن محمداً من قريش ، وأن عشيرته أحق بهذا الأمر من سواهم ، ولا ينازعهم فيه إلا مُدلٍ بباطل ، أو مقارف لإثم ، أو متورط في خطيئة ، وتلاه **بشير بن سعد** ، وكانت كلمته في رأيي هي القشة التي قسمت ظهر البعير ، فقد قال : « يا معشر الأنصار لقد كنتم أول من آزر وناصر ، فلا تكونوا أول مَن غَيَّر وبدَّل ، إن محمداً من قريش ، وإن قومه أحق بولاية هذا الأمر من بعده ، والله لن يراني الله أنازعهم هذا

(١) التوبة : ١٠٠ .

(٢) ابن الأثير . الكامل ٢/٢٢١ .

الحق أبداً » ، ووجه كلامه إلى سعد بن عبادة وقال : استحلفك بالله يا سعد ، ألم يقل النبى - عليه الصلاة والسلام - وأنت حاضر . الأئمة من قريش [1] ؟.

وهكذا استطاع الثلاثة الكبار ، أبو بكر ، وعمر ، وأبو عبيدة ، وهذا الأوسى الصالح - بشير بن سعد [2] - أن يمتصوا غضب الأنصار ، ويطفئوا لهيب عواطفهم ومشاعرهم ، ويجعلوهم يشاطرونهم الرأى ، ويقاسمونهم الاتجاه ، ويدفعونهم إلى وضع أيديهم فى يد الصديق ، **ما خلا سعد بن عبادة الذى أصر على موقفه ، وأبى أن يعدل عنه حتى لبى نداء ربه** .

وإن تعجب فعجب - أن يصمت التاريخ عن أبى أيوب رضى الله عنه فلا يسجل له فى هذا الاجتماع الكبير قولاً ، ولا يذكر له رأياً ، تُرى أكان فى حجرة أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - يشارك فى تجهيز النبى عليه الصلاة والسلام ، وإعداده لمثواه الأخير ؟! أم أن حزنه الشديد على - موت النبى صلوات الله وسلامه عليه - قد جعله يقبع فى داره ، يستعيد ذكرياته مع حبيبه وصديقه - صلوات الله وسلامه عليه - حتى انتهى اجتماع السقيفة ؟ ووُورِىَ صلوات الله عليه فى باطن حجرته الشريفة ؟ .

---

(١) ابن كثير . البداية والنهاية ٥/٢٠٨-٢٠٩.

(٢) ابن الأثير . الكامل ٢/٢٢٤.

والذى لا شك فيه هو أن أبا أيوب رضى الله عنه قد أتى المسجد وبايع أبا بكر رضى الله عنه فى البيعة العامة تماماً كما بايعه كافة المسلمين من الأنصار والمهاجرين (١) . وحُجتنا فى هذا هى - أنه لو لم يشارك غيره فى البيعة العامة وهو من هو فى قربه من النبى صلوات الله عليه ومنزلته فى خاصته وكبار أصحابه ، ما أغفل التاريخ موقفه ، ولا كفَّ قلمه عن الحديث فى أسباب قعوده وتعليل امتناعه . لكن شيئاً من ذلك لم يكن ، الأمر الذى يجعلنا على ثقة من أنه - رضى الله عنه - قد آثر الطاعة ، ولزم الجماعة .

وحُجة ثانية وهى - أن أبا أيوب قد كان رجل جهاد ، يؤثر الآخرة على الدنيا ويفضل المرابطة فى الثغور على ما فى هذه الحياة من المتعة والسرور .

ولا ريب فى أن هذه الرغبة الجامحة فى نفسه تصرفه عن الفتنة التى تشتت شمل الأمة ، وتجعل أبناءها طرائق وشيعا ، يتضاربون بالسيوف ، ويتطاعنون بالرماح ، وتجعله ينصرف إلى جهاد الكفار ، وطلب الشهادة فى صدهم عن ثغور الإسلام ، ووضع العقبات فى سبيل نشر مبادئه وتعاليمه .

ورجل من هذا الطراز الفريد لابد وأن يكون محبوباً من الأُمة ، ومرضياً عنه من الخاصة والعامة ، لا سيما الصديق والفاروق . والدليل على أن الشيخين رضى الله عنهما كانا

---

(١) ابن كثير. البداية والنهاية ٥/ ٢١٠ .

يُجلَّن أبا أيوب ، ويذكرانه فى حضوره وغيابه ما رواه محمد ابن سلام الجُمحى : أن ثياباً وردت على عمر من اليمن ففرقها على أصحابه وكان أبو أيوب غائباً فرفع له حلة ، فلما عاد ورأى الحلل سأل عنها ، فقالوا : هذه حلل جاءت من اليمن ، وكانت على عمر إحداها فأعطاها أبا أيوب ، وأمر فأحضرت حلته ، فبدا منه - رضى الله عنه - ميلٌ إليها ، واستحسانٌ لها فخيرَّه الفاروق بين الحلتين ، فارتضى التى كانت قد احتجزت له ، فأعطاه أمير المؤمنين إياها (١) .

وواضح من هذا الخبر أن أبا أيوب قد كان ذا مكانة خاصة فى نفس عمر فقد ذكره وهو غائب ، وسوَّى بينه وبين غيره فى الحلل التى كانت بين يديه . ولما حضر خيَّره بين حُلته التى كان قد رفعها له ، والحلة التى كان قد احتفظ بها لنفسه .

ومهما يكن من شىء - فإن أبا أيوب - رضى الله عنه - قد وضع نفسه بين يدى الصديق والفاروق ، لا يعصيهما ولا يخالف عليهما ، وأنه قد انخرط إبان عهدهما فى الجنود الذين انطلقوا كالرياح تُعْلِى ألوية الحق ، وتنشر راياته ، وتدعو الأمم والشعوب إلى الدخول فى الإسلام ، واعتناق أحكامه وتطبيق مبادئه وتعاليمه .

والمصادر التى بين يدى وإن لم تذكر المعارك التى خاضها أبو أيوب ، ولا المواقع التى أبلى فيها بسيفه ورمحه، فإننى

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق ٥/٤٣ .

لا أرتاب فى أنها كانت كثيرة وأن بلاءه كان صادقا ، وأنه لم يكن يطلب جزاءه إلا من الله وحده . وأكبر الظن أنه قد اختار فى عهد أمير المؤمنين عمر الشام ميداناً لجهاده . فقد سجل التاريخ أنه كان ضمن الجيش الذى زحف به عمرو بن العاص من فلسطين إلى مصر [1] ، لأنها كانت يومئذ حصناً للروم ومقراً لقوتهم ، وكان فيها من الخيرات ما يمكنهم من الصمود للعدو ، والانتصار عليه فى نهاية الأمر . فإذا سلبت من أيديهم هان أمرهم ، وضعف حدهم ، وكان من السهل مطاردتهم حتى حدود بلادهم .

وقد اختلفت الروايات فى الطرق التى سلكها عمرو - رضى الله عنه - حتى استطاع أن ينال رضا الفاروق ، ويحصل على إذن منه بغزو هذا البلد والاستيلاء عليه ، لأنه رضى الله عنه لم يكن من الذين يؤثرون السرعة فى الفتح والعجلة فى الحرب والضرب . فقد كانت أنفس المسلمين غالية لديه ، وكانت دماؤهم عزيزة عنده ، وكان يفكر أكثر من مرة قبل أن يسمح لهم بإشعال معركة ، أو مهاجمة عدو . ولهذا فإن إقناعه رضى الله عنه بالزحف إلى مصر لم يكن سهلاً ولا كان الوصول إليه يسيراً ، وأنت إذا طالعت المصادر التى أرَّخت لهذا الفتح تبدت لك هذه الحقيقة

ومهما ينسى التاريخ . فلا ينسى حب أبى أيوب لمصر ،

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق ٥/٤٦ .

وتردده عليها وتذكره لها فى الفينة بعد الفينة ، والحين بعد الحين ، وهو فى حبه لهذا البلد وإيثاره إياه على غيره يقتفى أثر النبى - صلوات الله وسلامه عليه - وينسج على منواله ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يحب مصر ، ويُطرى أهلها ، ولا ينفك يوصى أصحابه بالعناية بها ، والاستعانة بأبنائها ، وقد وردت عنه صلوات الله وسلامه عليه ، فى ذلك أحاديث كثيرة منها قوله عليه الصلاة والسلام : [**إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا منها جنداً كثيفاً فإنهم فى رباط إلى يوم القيامة**][1] . وقوله صلوات الله وسلامه عليه [**استوصوا بالقبط خيراً ، فإن لهم فيكم نسباً ورحماً**][2] . إلى غير ذلك مما كثر واشتهر فى الصحاح والمسانيد .

وليس أدل عل فضل مصر ، وعلو مكانتها ومنزلتها ، من أنها أكثر البلاد ذكراً فى القرآن الكريم ، وأنها بلدُ **هاجر أم إسماعيل** ، ورأس العرب المستعربة ، وبلد **مارية أم إبراهيم**[3] آخر أبناء محمد - صلوات الله وسلامه عليه - ولادة فى حياته . فضلاً عن أنها ، أى مصر بلد النور والحضارة ، ومصدر العلم والثقافة ، ومشكاة المدنية والمعرفة .

---

(١) المقريزى. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - (٤٢/١) .

(٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - مصدر سابق - ٤٢/١ .

(٣) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ١٦٩/٢ .

وقد زارها **أبو أيوب** -رضى الله عنه - لآخر مرة سنة ست [(١)] وأربعين فى خلافة أمير المؤمنين معاوية . وما أشك فى أنه قد عرف الكثير عنها أثناء انخراطه فى الجيش الذى تم فتحها على يديه ، تحت ألوية عمرو بن العاص فى خلافة الفاروق - رضى الله عنه - وعرف عنها أكثر وأكثر فى زياراته الأخرى لها ، فقد كان من الرجال الذين يعشقون العلم ، ويهوَوْن المعرفة ، وكان كلما ذكر مصر اشتعلت مشاعره ، واهتزت خواطره وتوالت الذكريات على فؤاده ، قال أسلم أبو عمران مولى كندة [(٢)] :

" كنا بمدينة الروم ، فأخرجوا إلينا جمعاً عظيماً منهم ، فخرج إليهم منا مثله أو أكثر ، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر صاحب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى انغمس فيهم ، فصاح الناس وقالوا : سبحان الله .. يلقى بيده إلى التهلكة - وكان **أبو أيوب** حاضراً هذه المعركة ، فلم يعجبه هذا التأويل ، وكان إذا رأى خطأ ، أو أنس انحرافاً ، أسرع إلى تقويمه ، وإحقاق الحق فيه ، فقام خطيباً وقال : " أيها الناس .. لقد نزلت فينا نحن الأنصار هذه الآية ، لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه قال بعضنا لبعض سراً عن النبى - صلوات الله وسلامه عليه : [**لقد أعز الله هذا**

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق ٥/٤٠ .

(٢) تهذيب تاريخ دمشق ٥/٤٥ .

الدين ، وعلت ألويتـــه وراياته ، فلو رجـــعنا إلى أمـوالنا فـأصلحناها وثمّـرناها . فنزل فـينا قـوله تعالى : ﴿ وأنفقوا فى سـبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾[1] ، ومعنى هذا أن أبا أيوب - رضى الله عنه - قد لا حظ فى صياح الناس ، ودعائهم الرجل المنغمس فى صفوف الأعداء ، وقولهم إنه قد ألقى بيده إلى التهلكة تثبيطًا عن الجهاد ، وتخويفاً من النضال والجلاد ، فبيَّن للناس أن تأويلهم مردود ، وأن فهمهم للآية الكريمة غير مقصود ، وأن السبب الحقيقى فى نزول الآية المذكورة ، إنما هو الصرف للأنصار عن الفكرة التى تراءت لهم وهى الانصراف عن الجهاد فى سبيل الله ، إلى إصلاح الأموال ، وتثميرها [2] . وهذا هو الحق فإن الانثناء عن الجهاد ، أو التقصير فيه ، يطمع العدو ويدفعه إلى اجتياح الأرض ، واستباحة العرض ، والاستيلاء على المال واسترقاق الأنفس ، والنساء والأطفال ، والتاريخ شاهد صدق على صواب هذا الأمر ؛ فإن المسلمين عندما كانت سيوفهم مشروعة فى أيديهم ، وكانت أرواحهم محمولة على أكفهم ، وكانوا موضع الإجلال ، ومحل التقدير والاحترام . وعلى العكس من ذلك تماماً عندما أغمدوا سيوفهم ، وعزَّت عليهم أرواحهم فلم يُرْخصوها فى حومة الوغى ، ولا بذلوها تحت وقع

---

(١) البقرة: ١٩٥ .

(٢) تهذيب تاريخ دمشق ٥/٤٥ .

المعارك ، فقد باتوا فريسة كل طامع وبُغية كل حاقد ، ولم يعد لهم صوت مسموع ولا كلمة نافذة .

وأيًا ما كان فإن أبا أيوب - رضى الله عنه - قد كان موضع إجلال الشيخين أبى بكر وعمر ومحل تقديرهما وتوقيرهما ومرجع هذا فيما أرى إلى أسباب :

أحدها : أنه كان ممن يحبون الله ورسوله ، ويحبهم اللهُ ورسوله . وقد سُقنا من قبل الأمثال على ذلك ، ونضيف هنا أن أبا أيوب قد بلغ من حبه للنبى عليه الصلاة والسلام ، أنه ما كان يطيق أن يرى شيئاً يؤذيه ، أو يغض من سروره وغبطته ، يقول رضى الله عنه : " كان رسول الله- ﷺ يطوف بين الصفا والمروة ، فسقطت على لحيته ريشة فابتدرتها وأخذتها ، فقال لى صلوات الله وسلامه عليه : [**نزع الله عنك ما تكره**][(1)] . ويقول سعيد بن المسيب : إن أبا أيوب أخذ من لحية النبى ﷺ شيئاً ، فقال له : " لا يصيبك السوء يا أبا أيوب " [(2)] .

ورجل هكذا شأنه فى حب النبى - صلوات الله وسلامه عليه - ودفعه عنه ما يكره حقيق أن يكون موضع الرضا ، ومحل التعظيم والتفخيم فى قلبى أبى بكر وعمر خاصة وفى قلوب الصحابة على سبيل العموم .

---

(1) الهيثمى . مجمع الزوائد ٩/٢٢٣ ، مستدرك الحاكم ٣/٤٦٢ .

(2) تهذيب تاريخ دمشق ٥/٤٢ .

والسبب الثانى هو : أن أبا أيوب كان رجل سلام ووئام ، ولم يكن رجل فرقة وخصام ، فلم يُرْوَ عنه أنه طوال عهد الشيخين - رضى الله عنهما - قد أثار خلافاً ، ولا أشعل نار فتنة ، وإنما كان حريصاً على اجتماع الصف والتئام الشمل .

أضف إلى هذا وذاك سبباً ثالثاً ، وهو موقفه رضى الله عنه من حادثة الإفك ، فقد ذكر الرواة أن زوجه أم أيوب سألته - أسمعت ما يقوله الناس فى عائشة ؟ فقال : وما يقولون ؟ قالت : ما يشيعونه من خبر الإفك ، قال : كذب والله ، أرأيت يا أم أيوب إذا كنت فى مكان عائشة أكنت فاعلة ما يُشيعه المرجفون عنها ؟ قالت : لا ، قال : فهى والله خير منك [(١)] .

وواضح من هذا الحوار أن أبا أيوب قد كان يعرف جيداً أعراف العرب ويفهم عاداتهم وتقاليدهم ، ومنها - أن الحرة لا تزنى أبداً ، وأنها تجوع ولا تأكل بثدييها ، وأن اللواتى يتورطن فى هذا الإثم ، وينغمسن فى هذه الرذيلة ، إنما هن الجوارى والإماء ، وحتى هؤلاء فقد كان منهن مَن تنفر من هذه الجريمة ، وتعَاف الوقوع فيها . وفى هذا يقول المولى سبحانه : ﴿ **ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عَرض الحياة الدنيا ومَن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم** ﴾ [(١)] .

---

(١) ابن كثير . تفسير القرآن العظيم ٦/٢٦ .

(٢) النور : ٣٣ .

والدليل على أن حرائر العرب لا يزنين ما رُوِىَ من أن هند ابنة عتبة وزوج أبى سفيان بن حرب بن أمية قد حضرت بيعة النساء فور فتح مكة فلما تلا رسول الله صلوات الله عليه " **ولا يزنين** " عجبت المرأة ، وطاش صوابها وقالت : أو تزنى الحرة يا رسول الله (١) ؟ وإذا كانت الحرائر لا تزنى كما عرفنا فما بالك بابنة أبى بكر ، وزوج محمد ، ومن لا تقاس فى حسبها ونسبها ومجدها وشرفها ، إنها أكبر من أن تصل إلى مقامها الشبهة ، وأسمى من أن يسدد إلى شخصها الاتهام . وقد هزَّ موقف **أبى أيوب** هذا مشاعر المؤمنين ، وأثار خواطرهم ، وبلغ من حسنه وعظمته أن نزل فيه قول الله تعالى ﴿ **لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين** ﴾ (٢) . وهو ما كان من أبى أيوب وزوجه فى الحوار الذى دار بينهما .

وما أشك فى أن هذا الموقف قد كان له أثره فى نفس أم المؤمنين عائشة ، وفى نفس أبيها وأمها وأخواتها وإخوتها ، وسائر عشيرتها وما أشك فى أنه قد كان له أثره كذلك فى نفس النبى صلوات الله وسلامه عليه ، وأنفس المؤمنين الصادقين من أصحابه . وقد كان أبو بكر - رضى الله عنه - من الذين

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية ٤/ ٣٠٧ .

(٢) النور : ١٢ .

يحفظون الجميل ولا ينسونه ، ويذكرون المعروف ، ولا يضربون صفحاً عن فاعله .

ومن أجل هذا كانت **لأبى أيوب** منزلة خاصة فى نفسه ، ومكانة مرموقة فى أعماق قلبه . والأمر كذلك بالنسبة لعمر - رضى الله عنه - فقد كان هو الآخر يعرف الفضل لأهله ، ويذكر المعروف لأصحابه .

وقد تسأل - إذا كان **أبو أيوب** قريباً إلى قلب الشيخين كما نقول ، فلماذا لم يسندا إليه عملاً من أعمالهما ، أو يقلداه وظيفة من الوظائف الكثيرة فى دولتيهما ؟ الجواب : -

أن الرجل قد كان شديد الإخلاص لله ، شديد الحرص على حبه ورضاه ، ومن أجل هذا فإنه كان إذا عمل عملاً ، لا يقبل أن تشوبه شائبة ، أو يمسه درن أو كدر . من أجل ذلك عاف المناصب ، وكره الوظائف ، وآثر كما أسلفنا أن يكون جندياً مجهولاً ، إذا كان فى الساقة كان فى الساقة ، وإذا كان فى المقدمة كان فى المقدمة . ولولا هذا لجاءته المناصب تسعى ، وأقبلت عليه الوظائف تخطب ودَّه وتنشد قُربه .

***

الفصل الثالث

في عهدي عثمان وعلي

ومات أبو بكر ، ومات من بعده عمر ، وبايع المسلمون عثمان ابن عفان -رضى الله عنه -وكان أبو أيوب ممن دخل فى طاعته ، ورضى عن بيعته ، وجرت فى عهده - رضى الله عنه - خطوب وأرزاء ، لم يشارك أبو أيوب فى شىء منها ، ولا كان له موقف مدوَّن ، أو غير مدون فى حدث من أحداثها .

فقد كان كما أسلفنا رجل سلام ووئام ، يلزم الجماعة ، ولا ينخلع من الطاعة .

ويبدو لى أنه كان مشغولاً عن الفتنة بالمرابطة فى الثغور ، والاستعداد لمواجهة العدو إذا حدثته نفسه أن يُغير على بلد من بلاد الإسلام ، أو يسطو على إقليم من أقاليمه .

وقُتل أمير المؤمنين عثمان فى الشهر الحرام ، والبلد الحرام وهو صائم يقرأ القرآن (١) .

وبايع الناس علياً (٢) - كرم الله وجهه - فدخل فيما دخل فيه غالبية المسلمين ، ولأنه كان يحب النبى - عليه الصلاة والسلام - ويؤثره ، فإنه كان يحب أقاربه وأهل بيته ومنهم على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - فهو حبيب النبى - صلوات الله عليه - وربيبه ، وهو أخوه وصاحبه و صهره ،

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ٧/١٨٨ - ١٨٩ .

(٢) تاريخ اليعقوبى ٢/١٧٨ .

وهو من فداه بنفسه ليلة الهجرة (١) ، ووقاه بسيفه يوم أحد ، وقال فى شأنه وهو يبارز ابن وُدٍّ فى غزوة الخندق : ﴿رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين﴾ (٢) ولما اشتد القتال فى خيبر واستعصت الحصون على الفتح ، واستحرَّ القتل قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : [**غدا أعطى الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله**] فما أمسى أحد من الصحابة إلا ورغب فى أن تكون له هذه المنقبة ، فلما أصبح الصباح قال صلوات الله وسلامه عليه : **أدعو إلىّ عليّاً وكان قد أرمد** فمسح صلوات الله عليه على عينيه فبرئتا بإذن الله ، ثم أعطاه الراية ، فما رأى المسلمون فى يومهم هذا أكثر منه شجاعة ، ولا أشد جرأة ، ولا أكثر قرباً من العدو ، ولا أعظم بلاء فى جهاده منه (٣) . ولو لم يقل فيه صلوات الله وسلامه عليه ، غير قوله عليه الصلاة والسلام : " من كنت مولاه فعليّ مولاه ، اللهم وَالِ من والاه ، وعَادِ من عاداه (٤) . لكان جديراً أن تتعلق به الأنفس وتهيم فى حبه القلوب والأفئدة .

---

(١) ابن سيد الناس . عيون الأثر ٢٣٥/١ .

(٢) الأنبياء : ٨٩ .

(٣) ابن الأثير . الكامل ١٤٩/٢ .

(٤) ابن كثير . البداية والنهاية ٣٤٨/٧-٣٤٩ .

ولا غروَ فقد كان أبو أيوب أحد خاصته ، وأحد القريبين من قلبه ومجلسه . فقد أقام فى المدينة ما أقام كرم الله وجهه ، فلما غادرها إلى الكوفة كان **أبو أيوب** له كظلّه ، يخوض معه الوقائع ، ويغشى المعارك ، والمجامع ، ففى موقعة الجمل وقف **أبو أيوب** - رضى الله عنه - إلى جانبه يضرب بسيفه ، ويطعن برمحه ولا تشوبه ريبة فى أنه مع الحق ، وأن الحق معه . وفى معركة صفين كان أبو أيوب أحد أبطالها المغاوير(١) ، وأحد فرسانها المشاهير الذين لم يغمد لهم سيف ولم يسكن لهم رمح ، ولما انقسم جيش علىّ رضى الله عنه فور رفع المصاحف على أسنة الرماح ، كان **أبو أيوب** من الفريق الذى أوى إلى علىّ - رضى الله عنه - وانضوى تحت لوائه (٢) .

وقد يكون هذا هو السر فى أنه - كرم الله وجهه - جعله هو وقيس بن سعد على مقدمة جيشه الذى زحف به إلى النهروان لمحاربة الخوارج (٣) . ولعظمة الدور الذى اضطلع به أبو أيوب فى هذه المعركة ، فقد رأيت لزاماً علىَّ أن أسوق طرفاً منها إلى القارىء ، ليرى كيف أن علياً - كرم الله وجهه - قد كان على

---

(١) ابن حجر . الإصابة ٦/٤ .

(٢) ابن الأثير . أسد الغابة ٩٦/٨ .

(٣) سير أعلام النبلاء . للذهبى ٤٠٦/٢ .

حق فى قتال هؤلاء الناس ، وكيف أن أبا أيوب - رضى الله عنه - قد وقف إلى جانبه (١) تماماً كما كان يقف إلى جانب النبى - صلوات الله وسلامه عليه ، فى معاركه التى خاضها معه ، وغزواته التى لم يتردد فى مرافقته فى كل واحدة منها .

لم يقاتل علىّ - كرم الله وجهه - الخوارج منذ الوهلة التى خرجوا فيها عليه ، وانحازوا إلى حروراء ، ونصَّبوا عليهم رجلاً منهم ، وأطلقوا عليه لقب أمير المؤمنين وإنما تركهم أحراراً حتى طغوا وبغوا وأفسدوا فى الأرض ، وقتلوا عبد الله بن خباب وامرأته ، واعترضوا الناس مما حدا بالأشعث بن قيس وغيره من القادة والزعماء أن يلحوا على علىٍّ فى أن يبدأ بهؤلاء المفسدين أولاً ، حتى يتوجهوا إلى معاوية وهم أمنون على أموالهم وأولادهم وأزواجهم (٢) ، ويروى ابن جرير - رحمه الله تعالى - خبر مقتل عبد الله بن خباب هذا من طريقين : أحدهما ليعقوب عن إسماعيل وخلاصته (٣) : أن الخوارج رأوا عبد الله ابن خباب خائفاً فهدأوا من روعه ، وطلبوا منه أن يسمعهم حديثاً رواه عن أبيه عن النبى ﷺ فأنبأهم أن أباه قد سمع من النبى ﷺ أنه ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ،

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق ٥/٤٠ .

(٢) تاريخ اليعقوبى ٢/١٩١-١٩٢ .

(٣) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٥/٧٣ ، ٨١ .

والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من الساعى . وأن أباه قد قال له : فإن أدركت ذلك فكن يا عبد الله المقتول ولا تكن يا عبد الله القاتل ، وأن الخوارج قد أضجعوه عند ذلك وذبحوه وبقروا بطن أم ولده عما فى بطنها .

وأما الطريق الثانى فهو لأبى مخنف ، وحاصل ما ذكره هذا الراوية الكوفى[1] أن خوارج البصرة رأوا عبد الله بن خباب يسوق امرأته على حمار فأفزعوه ثم هدأوا من روعه ، وسألوه أن يسمعهم حديثاً حدثه به أبوه عن النبى ﷺ ، لعل الله ينفعهم به ، فأنبأهم بأنه سوف تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل . كما يموت بدنه ، يمسى فيها مؤمناً ويصبح كافراً فقالوا له : لهذا سألناك ، وسألوه عن أبى بكر وعمر ، فأثنى عليهما ، وسألوه عن عثمان فى أول خلافته وفى آخرها فأثنى كذلك ، وسألوه عن علىّ قبل التحكيم وبعده ، فأجابهم بأنه على بصيرة من أمره وأنه أعرف بدينه منهم ، فقالوا له : والله لنقتلنك قتلة ما قُتلها أحد قط ، وأوثقوه ومضوا به إلى شاطىء النهر ، فسقطت رُطبة من نخلة هناك ، فقذف بها أحدهم فى فمه ، فأنبوه لأنه أخذها بلا ثمن ولا إذن من صاحبها فلفظها ، وكان سيفه فى يمينه فرأى خنزيراً لبعض أهل الذمة فضربه فقتله ، فلاموه واعتبروا هذا منه فساداً فى الأرض فذهب الرجل إلى صاحب

(١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٥/٧٢ ، ٩٢ .

الخنزير فترضاه ودفع له قيمته ، واطمأن قلب عبد الله لما رأى من القوم ، ولكنهم أضجعوه وذبحوه ، وبقروا بطن امرأته وقتلوا ثلاث نساء من طيىء وأم سنان الصيداوية .

والذى ينعم النظر فى هاتين الروايتين لا يملك إلا أن يرفض رواية يعقوب ، فليس من المعقول أن يُقتل عبد الله بن خباب لا لشىء إلا لأن أباه قد أوصاه بأن يكون عبد الله المقتول ، وألا يكون عبد الله القاتل .

والذى نعرفه عن الخوارج أنهم كانوا أولى ورع وذوى دين وعبادة ، وأنهم كانوا لا يريقون دم مسلم إلا بعد أن يمتحنوه ويعرفوا على وجه التأكيد ما إذا كان يرى رأيهم فى علىٍّ ومعاوية وغيرهما من كبار الحكام أم لا ، وهذا هو ما تقرره رواية أبى مخنف - فقد جاء فيها أنهم سألوه عن كل من أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ ، وقد كان جوابه كما رأينا مخالفاً لما كان يؤمن به القوم ويعتقدونه (١) .

ومن هنا كانت رواية أبى مخنف فى تصورى هى الصحيحة على ما فيها من بعض المبالغات التي تستهدف النيل من الخوارج وإظهارهم بمظهر الاحتياط فى كل شىء إلا فى إراقة الدماء ، وإزهاق الأنفس والأرواح ، وأياً ما كان فإن علياً لما بلغه هذا الحادث المشئوم أرسل إليهم الحارث ابن مرة العبدى

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٥/٧٢-٩٢ .

ليستجلى حقيقة ما بلغه عنهم ، ويأتيه بما يكون قد علمه من أخبارهم . وقتل الخوارج الحارث ، ولم يجد علىٌّ بدًا من أن يخرج إليهم ، وزحف الجيش يتقدمه قيس بن سعد بن عبادة ، ولما تقارب الفريقان تقدم أبو أيوب وحاول كل منهما أن يحول بين الخوارج وبين التورط فى حرب لا طاقة لهم بها ، وألحَّ عليهم فى أن يتجنبوا الفتنة ، وأن يدفعوا إلى علىّ قتلة عبد الله بن خباب ، ولم يكتف علىٌّ بما قاله قيس وأبو أيوب فتقدم إليهم بنفسه وأعلن فيهم أنهم هم الذين قبلوا التحكيم وهم الذين اضطروه إليه ، وأن الحكمين قد جارا عن القصد ، ولم يوفقا إلى الرشد وأن الأمر قد عاد كما كان وأنه ينبغى عليهم أن يضعوا أيديهم فى يده ، وأن يقاتلوا معه عدوهم وعدوه ، ورفض القوم ما عرضه عليهم علىّ إلا إذا أعلن كفره ، كما أعلنوا ، وتاب إلى الله كما تابوا ، وأصر القوم على المناجزة ، وراح كل من الفريقين يتهيأ للقتال ، وأمر علىٌّ كعادته أن يكف جنوده عن القتال حتى يكون الخوارج هم الذين يضرمون ناره [1] . ورفع راية وأمر أبا أيوب أن ينادى بالأمان لكل من لجأ إليه ممن لم يقتل ابن خباب ، ولم يعترض بسيفه الناس ، أو غادر ساحة المعركة إلى الكوفة . وأحدث نداء أبى أيوب فى نفوس الخوارج الأثر المطلوب فغادر بعضهم ميدان الحرب إلى الكوفة وأوى إلى جيش علىّ منهم مائة ومضى فروة بن نوفل فى خمسمائة فارس

---

(١) تاريخ اليعقوبى : ٢/١٩٢-١٩٣ .

حتى نزل التسكرة ، وأبى أن يقاتل علياً حتى يكون على بصيرة من أمره وحتى يتبين له وجه الحق فى مسالمته أو منابذته ، وهبط عدد الخوارج من أربعة الآف إلى ألفين وثمانمائة ويقال بل إلى ألف ومائتين ، واضطرم لهيب المعركة ، وكرت خيل أبى حمزة بن سنان الخارجى على خيل علىّ فى قوة وصدق ، فانشطرت شطرين وتقدمت نحو الرجال ، ولكن الرماة من جُند علىٍّ استقبلوا وجوهها بالنبال وعطفت عليها خيلهم من جهة اليمين ومن جهة الشمال ، وأرخى العنان للسيوف والرماح تعمل عملها فى أجسام الخوارج ، وما هى إلا ساعة من نهار حتى قتلوا جميعاً ، ولم ينج منهم غير مائتين قد أثخنتهم الجراح ، وتسعة قد أفلتوا من غير أن يصيبهم شىء ، وكان من قتلى الخوارج - طريف بن عدى بن حاتم الذى واراه أبوه التراب ، وكان فى جيش علىّ وهو يقول : الحمد لله الذى ابتلانى بيومك مع حاجتى إليك .

ومضى رجال أهل الكوفة يصنعون بقتلاهم من الخوارج ما صنعه عدى بن حاتم بولده ، وأدرك علىٌّ مدى الأثر الذى يمكن أن يُحدثه فى نفوس القوم مشهدهم وهم يدفنون أهليهم وأقاربهم الذين قتلوا بأيديهم ، وسالت دماؤهم على سنان رماحهم وسيوفهم ، فأمرهم بالارتحال وهو يقول :

" ارتحلوا إذاً - أتقتلونهم ثم تدفنونهم " (١) .

---

(١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٥/٨٦، ٨٩ .

والذى يتأمل العلاقة بين علىّ والخوارج ، يتبين له أنه لم يُهَاجمهم ولم يُضيِّق عليهم ، وإنما تركهم أحراراً يفعلون ما يشاءون ، ، لا يُحاربون فى رأيهم ، ولا يُقاتلون من أجل عقيدتهم فلما قتلوا العباد ، وأظهروا فى الأرض الفساد ، نبههم علىّ إلى أنهم قد تعدُّوا حدود الله ، ودوَّخوا بلاده وعباده ، وطلب منهم أن يدفعوا إليه قتلة عبد الله بن خباب حتى يُقيد منهم ، كما يأمر القرآن ، فأبوا - وقالوا : كلنا قتلة ابن خباب وامرأته وأعداداً أخرى من المسلمين فلم يجد علىٌّ بُدًّا من الزحف إليهم ، والإدالة منهم .

هنا ظهر أبو أيوب وتبين أنه كان من قادة جيش علىّ ، وخاصة خاصته ، فقد تسلم إمرة المقدمة (١) مع قيس بن سعد بن عبادة . ولأنه كان رجل سلم كما قلنا أكثر من مرة فإنه لم يقاتل الخوارج حتى أعذر إليهم ، وأوضح لهم أنهم على غير حق فى معاداة علىّ - رضى الله عنه - وسلّ السيوف لقتالهم ، ودعاهم إلى راية نصبها أبو الحسن ، وأمر أبا أيوب أن ينادى أن كل من أوى إلى هذه الراية وانثنى إلى ظلها فهو آمن على نفسه وماله ونسائه وأولاده ، فلبى بعضهم النداء وأبى البعض الآخر إلا أن يكون ضمن الأعداء . ولما لم تُجد الدعوة إلى السلم أمر علىٌّ - كرم الله وجهه - جنوده بالزحف ، وكان أبو أيوب ممن خاض هذه المعركة بشرف (٢) ، وشارك فيها بإخلاص ، وما فتئ

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق ٤٠/٥ . (٢) الذهبى : سير أعلام النبلاء ٤٠٦/٢ .

يقاتل حتى استُئصل الحروريون ولم يبق منهم غير عدد قليل، تجرع كأس الهزيمة، وذاق وبال الانكسار. وبعد قليل من هذه الحرب القاسية، عاد عليٌّ -رضى الله عنه- إلى الكوفة [1] ومعه أبو أيوب كما هى العادة.

ولم يرو أحد من المؤرخين أن الرجل قد أغضب إمامه أو أتى شيئاً يكرهه، حتى فارق هذه الدنيا وهو عنه راض وبه قرير عين.

ولست أدرى إذا كان أبو أيوب قد دخل فى طاعة معاوية فور استشهاد علىّ - كرم الله وجهه - أم أنه بايع الحسن - رضى الله عنه - وانخرط فى جنوده، فلما ترك الحكم وتنازل عن الخلافة لمعاوية، بايعه أبو أيوب وأصبح أحد رعاياه. وهذا الرأى الثانى فى اعتقادى هو الحق، فما كان لأبى أيوب أن يترك الحسن ويدخل فى طاعة معاوية وقد كان أحد أحباب النبى - عليه الصلاة والسلام - وأحباب أهل بيته لا سيما السبطين الكريمين الحسن والحسين، فقد كان النبى عليه الصلاة والسلام يحبهما ويؤثرهما على غيرهما ويقول: " إنهما سيدا شباب أهل الجنة " وكان أبو أيوب- رضى الله عنه - خير من يُحيى سنة النبى صلوات الله وسلامه عليه، وخير من يقتفى آثاره.

ولست أدرى على وجه التأكيد: إذا كان أبو أيوب قد أقام فى الكوفة فور التئام الصف واجتماع الشمل، ودخول الأمة كلها

---

(١) تاريخ اليعقوبى ٢/١٩٢-١٩٣.

فى طاعة معاوية ، أم أنه نسج على منوال الحسن وأخيه الحسين فغادر العراق إلى الحجاز ، وفارق الكوفة إلى المدينة المنورة وهذا الاتجاه هو أرجح عندى من الاتجاه الأول ، فما كان لأبى أيوب أن يقيم فى إقليم قتل أهله حبيبه وصديقه علياً ، وسطو على ولده فنهبوا متاعه ، وجرحوه فى فخذه جراحةً أشوته ، ونازعوه بساطاً كان يجلس عليه [1] . إن هؤلاء ليسو هم الذين يستريح أبو أيوب إلى صحبتهم ، ويفضلهم على غيرهم ، يندم إذا هو وافته منيته بين أظهرهم . غادر أبو أيوب العراق إذاً ، وولّى وجهه شطر دار الهجرة ليفئ إلى الراحة ، وينفض عن جسمه ونفسه غبار التعب واللأى . فقد لبث خمس سنين وهى المدة التى قضاها علىّ - كرم الله وجهه - أميراً للمؤمنين[2] وهو لا يخرج من حرب إلا إلى حرب ، ولا ينتهى من معركة إلا إلى معركة هى أنكى وأشد . ولو كانت هذه الحروب والمعارك بين المسلمين والكافرين ما وجد فيها أبو أيوب تعباً ، ولا قاسى فيها عناءً ونصباً فقد كان من رهبان الليل وفرسان النهار الذين لا يحبون شيئاً كما يحبون الشهادة فى سبيل الله ، ولا يكرهون شيئاً كما يكرهون الموت على الفراش ، الذى كانوا لا يشبهونه إلا بموت الحمار . ولكن المعارك والمواقع التى خاضها فى خلافة

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٨/١٥ .

(٢) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٥/١٥٢-١٥٣ .

عليّ قد كانت بين المسلمين والمسلمين ، صحيح أن اعداءهم قد كانوا من الناكثين والقاسطين لكنهم كانوا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فقتالهم وإن كان حقا فإنه يفرح المشركين وأهل الكتاب وعبدة النار الذين كانوا ولا يزالون يتربصون الدوائر بالإسلام ، ويحرصون على أن يضعفوا من قوته ، ويخضضوا من سلطانه وشوكته .

وصفوة القول - **أن أبا أيوب قد أوى إلى عليّ** ، وشاركه في سلمه وحربه وكان أحد خاصته وكبار أصحابه . وقد أولاه عليٌّ ثقته وأشركه في عمله فولاه إمرة المدينة [1] وجعله على مقدمة جيشه في معركة النهر ، ومات وهو راض عنه ، ومطمئن إلى وفائه وإخلاصه ، ونسج ولده الحسن على هذا المنوال نفسه حتى تخلى عن الحكم وتنازل عن الخلافة ، ورضي أن يكون فردا من أفراد الرعية حقناً لدماء الأمة ، وضنّاً بأرواحها أن تكون طعاماً للأسنَّة ، ودريَةً للسهام .

****

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق ٥/٤٤ .

الفصل الرابع

فى خلافة معاوية

وبايع **أبو أيوب** - رضى الله عنه - معاوية كما أسلفنا ، وأوى إلى ظل خلافته ، على الرغم من أنه لم يكن يراه أحق بها من سواه من الذين كانوا على قيد الحياة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، من أمثال سعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وأبىّ بن كعب ، ومن إليهم من أبناء الصحابة الكبار مثل عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب .

وعلى الرغم من أنه كان يرى أنه هو الذى شق عصا الطاعة ، وشتت شمل الأمة بخروجه على علىّ - كرم الله وجهه - واشتباكه وإياه فى معارك طاحنة أزهقت فيها عشرات الآلاف من أرواح المسلمين ، وأراقت دماءهم وأموالهم ، وأطمعت فيهم أعداءهم الذين يتربصون بالإسلام الدوائر ، وينتهزون الفرص لوقف انتصاره وانتشاره ، فى الوقت الذى كان يعرف فيه معاوية أنه ليس ندًّا لعلىّ ، ولا قريبًا منه ، لا فى قرابته وصهره ، ولا فى جهاده وسبقه ، ولا فى تقواه وورعه ، أضف إلى هذا وذاك أن الفرق قد كان واسعًا بين حكم كل منهما .

فحكم علىّ حكم آخرة يتوخى الحق والعدل والمساواة بين الناس ، وحكم معاوية حكم دنيا ينشد المنفعة القريبة ، ويستهدف المصلحة الخاصة ، ويجعل الناس طبقات يتفاضلون بمقدار انحيازهم إليه ، ودفعهم عن ملكه ، وتفانيهم فى خدمته وخدمة أهل بيته وعلى سبيل المثال ما يرويه المؤرخون من أن

عقيل بن أبى طالب أتى أخاه علياً وهو أمير للمؤمنين ، وطلب منه أن يهبه نعلاً ، فقال له عليّ : والله ما عندى ما تريد ولا قدرة لى على شرائه ، ولكن اذهب إلى بائع النعال وخذ منه واحدة وأخبره أننى سأدفع له ثمنه عندما يحين عطائى . وغضب الرجل ومضى منصرفاً إلى معاوية فى دمشق وأسمعه ما كان بينه وبين أخيه أبى الحسن ، فوهبه مائة ألف درهم وقال له : أنا خير لك أم أخوك ؟ فقال عقيل : أخى خير لى فى دينى وأنت خير لى فى دنياى (١) .

***

وهكذا فرق الرجل بين حكم أخيه وحكم معاوية ، فالأول يستهدف الله والدار الآخرة ، والثانى لا يستهدف إلا المصالح الخاصة ، والمنافع العاجلة .

وهذا هو السرّ فى أن أبا أيوب - رضى الله عنه - لم يكن يستريح إلى معاوية ولا إلى الكثير من أهل بيته الذين عاونوه فى الانشقاق على أبى الحسن - كرم الله وجهه - والدخول وإياه فى حروب أكلت الأموال والرجال . وكان - رضى الله عنه - كثير الحساسية بالنسبة لأوامر النبى صلوات الله وسلامه عليه ونواهيه ، وسنته التى كان يحرص على إقامتها ، ويغضب أشد الغضب إذا أنس من أحد الانثناء عنها ، أو التهاون فى

---

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ٤/٦٤ .

أدائها ، لاسيما إذا كان هذا الشخص من العمال والأمراء ، لأن الناس تبع لهم ومشغفون بتقليدهم ، فخطر انحرافهم أقوى ، وأثر مخالفتهم أشد وأنكى .

روى محمد بن كعب القرظي قال : كان أبو أيوب يخالف مروان أثناء ولايته على المدينة من قبل معاوية رضي الله عنه ، فسأله مروان عن السبب في هذه المخالفة فقال له : " إني رأيت رسول الله ﷺ يصلي الصلوات فإن وافقته وافقتك ، وإن خالفته خالفتك "(1) .

ومعنى هذا أن أبا أيوب كان يرى - وهو الحق - أن طاعة أولي الأمر مشروطة بطاعتهم لله ورسوله ، فإذا عصوا الله ورسوله فلا طاعة لهم - وهذه قاعدة متفق عليها من أولي العلم ، ومن السلف الصالح من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام وخلفائه ، لأنها مسجلة في القرآن الكريم من جانب ، ولأن الخلفاء الراشدين كانوا يستفتحون بها عهودهم ، أما القرآن فمنه قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً** ﴾(2) .

وأما مقالات الخلفاء فمنها : قول أبي بكر رضي الله عنه -

---

(1) تهذيب تاريخ دمشق ٤٢/٥ ، مجمع الزوائد للهيثمي ٦٨/٢ .

(2) النساء : ٥٩ .

فى الخطبة التى افتتح بها عهده " أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت فلا طاعة لى عليكم [1] .

ومن أجل هذا فإن مروان لم يجد فرصة تمكنه من مخاصمة أبى أيوب ومحاسبته على ما قاله له ، وعلى هذا المنوال نفسه نسج أبو أيوب مع معاوية ، فقد كان يزوره فى حاضرة الخلافة ، وكان معاوية لا ينسى انحيازه إلى أمير المؤمنين علىّ ، وقتاله تحت لوائه .. فكان إذا جاءه فى حاجة لا يقضيها له [2] . وإذا استقبله فى مجلسه لا يكف عن تذكيره بما كان منه . وكان أبو أيوب لا يخشى لومة لائم ، ولا يرهب سلطان حاكم ، ومن أجل هذا فإنه كان يبادل الخليفة غلظة بغلظة ، ولوماً بلوم . دخل عليه يوماً وحوله أهل الشام ، فأدناه من سريره وقال له بعد أن راح يُعدد مآثره ويحصى مفاخره : مَن قتل صاحب الفرس البلقاء التى جعلت تجول يوم كذا وكذا ؟ فقال أبو أيوب : أنا قتلته إذ أنت وأبوك على الجمل الأحمر معكما لواء الكفر . فأومأ معاوية وتنمر أهل الشام لأبى أيوب ، وخشى معاوية العاقبة ، فرفع رأسه وقال : مَه ، مه لعمرى ما عن هذا سألناك ولا هذا أردنا منك [3] .

وواضح من هذا الخبر أن معاوية كان يريد تخويف أبى أيوب وإحراجه ، وكان يتوقع منه أن يحسب حساب أهل الشام ،

---

(1) ابن الأثير : الكامل ٢/٢٢٤ - ٢٢٥ .

(2) تهذيب تاريخ دمشق ٥/٤٤ .

(3) تهذيب تاريخ دمشق ٥/٤٤ - ٤٥ .

فيترك الغلظة وينحو إلى المجاملة ، وكان أهل الشام يطيعون معاوية من غير تفكير ولا تبرير ، ويسارعون إلى نيل رضاه بالنيل من عدوه ، والانتقام من شانئه ، فلما قال أبو أيوب ما قال توقع منهم الشر وخشى أن يقتلوا الرجل ، وهو من هو فى أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام ، فتسوء العاقبة وتكثر اللائمة فقال ما قال .. وقد كان ممن يغلب حلمه غضبه ، ويجبر حسن تصرفه زلأت لسانه .

وحادثة أخرى ليست أقل من سابقتها فى بيان ما كان يكنه معاوية رضى الله عنه فى قلبه لأبى أيوب ، فقد كان الرجل يعرف أن معاوية - رضى الله عنه - يحتجز الأموال ويتصرف فيها كما يشاء ، فمن شاء أعطاه وأغدق ، ومن شاء منعه وأمسك . وكانت ديونه - رضى الله عنه - قد كثرت فأتى معاوية وكلمه فى أدائها عنه ، فأبى وبدت الكراهية فى وجهه ، فعزَّ على أبى أيوب أن يأتيه قاصداً ولا يعطيه فقال له : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [**إنكم ستـرون بعـدى أثرة**] قال معاوية : **فأى شىء قال لكم؟** قال أبو أيوب : قال معاوية : " فاصبروا ، قال أبو أيوب " : والله لا أسألك شيئاً أبداً " (١) .

وواضح من هذا الخبر أن معاوية قد ضنَّ على أبى أيوب وهو قادر على قضاء دينه ، وتفريج همه ، وأن ذلك لم يكن منه عن بخل وتقتير ، وإنما كان عن بغض وتقصير ، وأن أبا أيوب قد

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق ٥/٤٣-٤٤ .

عزّت عليه نفسه فأقسم ألا يستقضى معاوية حاجة أبداً .

وقد تسأل - ألم يكن أبو أيوب وهو الذكى الأريب يعرف ما ينطوى عليه قلب معاوية له ؟ وأنه مهما ينسى فلا ينسى موقفه الصلب إلى جانب أمير المؤمنين على وانحيازه الدائم إليه فى السلم والحرب على السواء فكيف وهذه حاله وحال صاحبه يذهب إليه طالباً منه قضاء ديونه ؟ .

والجواب : أن أبا أيوب لم يذهب إليه طالباً شيئاً من ماله ولا من مال أبيه فقد كان الرجل أعزّ نفساً ، وأعظم احتمالا من أن يستجدى عدوه ، وإن كانت الظروف قد أبت عليه إلا أن يبايعه ويدخل فى طاعته ، وإنما أتاه طالباً حقه الذى فرضه الله له فى محكم كتابه فى قوله تعالى من سورة براءة : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم** ﴾(1) . فقد قسمت هذه الآية أموال الصدقات التى هى أموال الزكاة إلى ثمانية أجزاء ، ومنها الجزء الخاص بالغارمين ومعناه أداء الدين عن المدينين ، وحيث إن معاوية - رضى الله عنه - هو إمام المسلمين وأن أموال هذا الجزء فضلاً عن سائرها فى يده ، فإن قضاء دين أبى أيوب من هذه الأموال حق خوّله الله له ، وليس لمعاوية ولا لغيره أن يمنعه عنه مهما كان موقفه منه ما دام لم

---

(1) التوبة : ٦٠.

ينكث بيعته ، ولم يخرج عن حكمه وطاعته .

فإن قلت : إذا كان أبو أيوب لم يطلب سوى حقه الذى أعطاه الله إياه فلماذا أقسم ألا يستقضيه حاجة أبداً ؟

والجواب : أنه تأكد من مخالفة معاوية لما فرضه الله عليه فى كتابه ومثله لا ينبغى أن يؤتى لحاجة ، أو يقصد لتفريج كربة . هذا من وجهة نظره ألا ترى أن حاطب بن ثعلبة لما أبى أن يدفع للنبى عليه الصلاة والسلام زكاة ماله ثم عاد وأراد أداءها لم يقبلها صلوات الله وسلامه عليه منه ، ونسج على منواله هذا أبو بكر وعمر من بعد ، وتركا الرجل ليصْلَى عاقبة نفاقه[1] . .

واقرأ فى هذا إن شئت قوله تعالى : ﴿ **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدَّقَنَّ ولنكوننَّ من الصالحين * فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون * فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون** ﴾[2] .

فأنت ترى أن أبا أيوب لم يكن لمعاوية وأهل بيته كما كان لعلىّ وولده من بعده ومع هذا فإنه - رضى الله عنه - لم يثر شغباً ، ولا شارك فى ثائرة ، ولأنه كما قلنا أكثر من مرة قد كان رجل جهاد فى سبيل الله يؤثر الشهادة على الانغماس فى أعراض الدنيا ، والارتطام فى مباهجها ومفاتنها ، فإن إقامته فى المدينة

---

(1) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : ٤/١٢٤-١٢٥ .

(2) التوبة : ٧٥-٧٧ .

لم تطل ، فقد غادرها مودعاً إياها إلى المرابطة فى الثغور ، والخروج للقاء العدو فى البر والبحر ، والصوائف والشواتى لا يتخلف عن حملة ، ولا يقصر عن لقاء . اللهم إلا مرة واحدة عندما أسندت قيادة الغزو إلى عبد الملك بن مروان ، وكان يؤمئذ صغير السن ، قليل التجربة ، وكان فى الجنود من هم أكبر منه سناً ، وأوسع علماً بفنون الحرب وشئون القتال . وعلى الرغم من أن أبا أيوب - رضى الله عنه - قد كان مُحقًّا فى تخلفه فإنه ظل يندم على قعوده عن الخروج ويقول : ما كانَ علىَّ

لو أننى حملت رمحى وامتشقت سيفى ، وخرجت مجاهداً [1] فى سبيل ربى . وقد سبق وعرفت أن الرجل لم يكن من هواة المناصب ، ولا من طلاب المراتب والمآرب وإنما كان جندياً مجهولاً . إن كان فى الساقة ، كان فى الساقة ، وإن كان فى المقدمة كان فى المقدمة ، ومثله لا يعنيه من يكون أميره الذى يتبعه ويجاهد تحت لوائه ومهما يكن من شىء - فإن أبا أيوب قد كان يتنقل من أجل الغزو من الشام إلى مصر ومن مصر إلى الشام .. ففى سنة ست وأربعين للهجرة ذهب - رضى الله عنه - إلى مصر للقتال فى البحر [2] ، وكانت له فيه نوادر وحكايات تدل فيما تدل على سعة علمه ، واتساع صدره ، وأنه لم يكن متزمتاً ثقيل الظل . يعاف الناس مجلسه والتحدث إليه ،

(١) ابن عبد البر : الاستيعاب ٤٠٦/١ .

(٢) الذهبى : سير أعلام النبلاء ٤٠٦/٢ .

وإنما كان على زهده ونسكه لا يكره الدعابة ، ولا يعاف المزاح .

قال زياد بن أنعم : انضم مركبنا إلى مركب أبى أيوب فى البحر ، وكان معنا رجل مزاح فكان يقول لصاحب طعامه : جزاه الله خيراً وبرًا ، فيغضب فقلنا لأبى أيوب إن معنا رجلاً إذا قلنا له : جزاك الله خيراً وبُراً يغضب ، فقال : اقلبوه له إنا كنا نتحدث أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر . قال : فقال له المزاح جزاك الله شراً وعُسْراً . فضحك وقال : ما تدع مزاحك ؟ فقال الرجل جزاك الله أبا أيوب خيراً [(١)] .

وواضح من هذا الخبر والذى سبقه أن غزو أبى أيوب - رضى الله عنه - لم يكن مقصوراً على البر وحسب ، وإنما كان فيه وفى البحر معاً ، وواضح منهما كذلك أنه وهو من هو فى مكانه من النبى عليه الصلاة والسلام ، لم يكن متعالياً ، ولا مُتسامياً ، وإنما كان بسيطاً يُمازح الناس ، ويمازحه الناس . وكيف لا وهو يحفظ كتاب الله ويتلو منه قوله لنبيه عليه الصلاة والسلام :

[**ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك**][(٢)].

وأيًا ما كان فإن أبا أيوب رضى الله عنه - قد عاد من سفرته هذه إلى مصر ليرابط فى الثغور التى كانت تواجه الروم ، وكان معاوية - رضى الله عنه - ينوى مهاجمتهم حتى يضع يده على القسطنطينية حاضرة دولتهم ، وإحدى قلاع المسيحية فأعد

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق ٥/٤٣-٤٤ ، مجمع الزوائد ٨/١٨٥ .

(٢) آل عمران : ١٥٩ .

جيشاً كثيفاً وأمرَّ عليه سفيان بن عوف ، وأمر ولده يزيد أن ينخرط فيه ويظهر أنه وجد فى نفسه لأن أباه لم يسند القيادة إليه فتثاقل وادَّعى المرض وتصادف أن أصاب الجيش تعب وجوع شديدان ففرح يزيد وأنشد :

ما إن أبالى بما لاقت جموعهم
بالفرقدونة من حمى ومن هوم
إذا اتكأت على الأنماط مرتفقا
يدير مران عندى أم كلثوم

وبلغ هذا الشعر أباه فغضب وأقسم على ابنه ليلحقنَّ بسفيان بن عوف ، وحشد معه قوة ضاربة ضمت الكثيرين من وجوه الصحابة وأبنائهم من أمثال **أبى أيوب الأنصارى** - رضى الله عنه - وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد العزيز بن زرارة الكلابى ، وغيرهم كثير .

ومضى يزيد ومعه هؤلاء الأبطال المغاوير حتى لقىَّ جموع الروم ، ودارت رحى القتال بين الفريقين ، وكان عبد العزيز بن زرارة يطلب الشهادة ويعمل جاهداً لبلوغها وكانت تستعصى عليه حتى حزن قلبه ، وضجرت نفسه وأنشد أبياتاً جاء فيها :

قد عشت فى الدهر أطواراً على طرق
شتى فضا وقت فيها اللين والبشعا
كلا بلوت فلا النعماءُ تبطرنى
ولا تخشعت من لأوائها جزعاً
لا يملأ الأمر صدرى قبل موقعه
ولا أضيق به ذرعاً إذ اوقعا

وانغمس فى صفوف الأعداء يضاربهم بسيفه ، ويطاعنهم برمحه ، حتى التفوا عليه وقطعوا خيط نفسه ، وهكذا بلغ الهدف الذى كان يتعطش إليه ، وقطف الثمرة التى كان يتحرق شوقاً إلى تناولها ، وبلغ خبر موته معاوية - رضى الله عنه - فحزن عليه أشد الحزن وأوجعه ، ودار بينه وبين أبيه زرارة هذا الحوار : قال معاوية : " هلك فتى العرب " قال زرارة : ابنى أو ابنك ؟ قال معاوية ابنك : فأجرك الله . قال زرارة وقد دمعت عيناه ، وظهر الأسى فى تقاسيم وجهه :

فإن يكن الموت أوديبه

وأصبح مخ الكلابى زيراً

فكل فتى شارب كأسه

فإما صغيراً وإما كبيراً

ولم يكن أبو أيوب أقل بلاءاً من هذا الكلابى وغيره ، فقد كان على الرغم من كبر سنه ووَهَن عظمه ، لا يرهب الموت ، ولا يجبُنَ عند لقاء العدو ، حتى أنشبَ المرض مخالبه فيه ، وشاع ذلك حتى بلغ يزيد بن معاوية ، فجاءه عائداً له ومستفسراً عن حاله ، فلما دنا منه قال له : ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ، فقال : إليك وصية ؟ قال : نعم .. إذا مت فانغمسوا بى فى العدو حتى إذا بلغتم أقرب مكان منهم فاحفروا لى قبراً ، وادفنونى فيه ولتطأ الخيل المكان حتى لا يظهر منه ما يدل عليه [1] . ثم

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٥٧/٨ .

قال : إنى محدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ، ولولا أنى على شفير الموت ما حدثتكموه سمعت النبى عليه الصلاة والسلام يقول : [**مَن مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة**] (١) .

وقد مات أبو أيوب رضى الله عنه ، عقب هذه الوصية ، وصلى عليه يزيد بن معاوية وأنفذ ما كان قد طلبه (٢) .

وقد اختلف الرواة حول المكان الذي وُرِىَ فيه أبو أيوب الثرى ، فذهب فريق منهم إلى أنه كان تحت أسوار القسطنطينية ، أو على كثب منها (٣) ، وذهب آخر إلى أنه كان بعيداً عن هذه الأسوار (٤) ، واختلفوا كذلك حول مصير هذا القبر ، فمنهم من قال : إن الروم قد عرفته وإنها كانت تتبارك به وتستسقى عبده (٥) . ومنهم من قال : إنها قد همت بنبشه والعبث بجثمان صاحبه لولا أن المسلمين أنذروهم إن هم فعلوا ذلك أن يضعوا نواقيسهم دون أن يرتفع لها صوت فى بلادهم ،

(١-٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣/٤٨٤ .

(٣) ابن عبد البر : الاستيعاب ١/٤٠٦ .

(٤) تهذيب تاريخ دمشق ٥/٤٦ .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ٨/٥٧ .

فانصرفوا عما كانوا قد إعتزموا أن يفعلوه [1] .
والذى تطمئن إليه النفس ، ويسكن إليه القلب : أن قبر أبى أيوب قد أخفى تماماً كما أراد ، وأن أحدا لم يعرفه لا من المسلمين ولا من الروم ، فقد اتفقت الروايات على أن يزيد بن معاوية قد أنفذ وصيته [2] كاملة ، لم يغير منها حرفاً .
وما أشك فى أن قبر الرجل قد كان تحت أسوار القسطنطينية ، أو على كثب منها ، فقد وردت أحاديث كثيرة تطرى الجيش الذى غزا القسطنطينية ، وتعلن أن الله تعالى قد غفر لجنوده ذنوبهم ، ومن هذه الأحاديث ما ذكره الحافظ ابن كثير وعزاه إلى صحيح البخارى وهو قوله عليه الصلاة والسلام :
« أول جيش يغزون مدينة قيصر ومغفور لهم » . وقد ادَّعى ابن كثير أن يزيد ابن معاوية قد أتى ما أتى من المعاصى اعتماداً على هذا الحديث ، وهذا كلام عجيب فإن المقصود من هذا الجيش الذى غزا مدينة قيصر إنما هم الشهداء الذين فاضت أرواحهم أثناء الغزو مثل : عبد العزيز بن زرارة وأبى أيوب - رضى الله عنهما - وإذا كان المقصود هو الجيش كله فإن الكلام ليس على إطلاقه ، وإنما المراد من غزا هذه المدينة المذكورة ، وظل حتى مات ملتزماً طاعة الله ، مطبقاً أوامره ، ونواهيه . أما من حاد عن الخير إلى الشر ، وعن الطاعة إلى المعصية ، وعن مخالطة

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق ٥/٤٦ - ٤٧ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣/٤٨٤ .

الاتقياء والصالحين إلى معاشرة المُجّان والمفسدين ، فما أظن أن النبى عليه الصلاة والسلام قد أدخلهم بين هؤلاء الغُر الميامين .

وعلى كل حال فإن وفاة أبى أيوب رضى الله عنه ، قد كانت فى السنة التاسعة والأربعين ، حيث كانت هذه الغزوة [1] . ومن الرواة من يدّعون أن وفاته قد كانت فى الحادية والخمسين ، أو الثانية والخمسين [2] ، أو السنة التى تليها [3] ، وهى أقوال لا تثبت إلا إذا ثبت غزو القسطنطينية ووصول المسلمين إلى أسوارها قد كانت فى إحدى هذه السنوات من غير تحديد .

غير أن المصادر التى بين يدى لم تذكر خلافاً حول أن يزيد بين معاوية قد غزا الروم ، وبلغ أسوار عاصمتهم سنة تسع وأربعين للهجرة [4] .

وأيًاما كان فإن أبا أيوب رضى الله عنه قد نال ما تمنى ، وبلغ الغاية التى كان يتعطش إليها طوال حياته ، وهى الشهادة فى غزوة صرح النبى عليه الصلاة والسلام أن الجيش الذى حشد لها مغفور لهم ومعنى هذا أنه رضى الله عنه قد غفر له مرتين ، أولاهما فى غزوة بدر فقد ثبت عن النبى صلوات الله

---

(١) ابن الأثير : الكامل ٣/٣١٤-٣١٥ .

(٢) ابن عبد البر : الاستيعاب ١/٤٠٥ .

(٣) ابن حجر : الإصابة ٤/١٢ .

(٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٥/٢٣٢ .

عليه أنه قال لعمر رضى الله عنه : [**لعلك لا تدرى أن الله تعالى قد إطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**][1]. والثانية فى غزوة القسطنطينية للحديث الذى سبق وذكرته ، ولا مانع من إعادته وهو قوله صلوات الله عليه : [**أول جيش يغزون مدينة قيصر مغفور لهم**] وما كان الله ليغفر له مرتين ، ثم يؤاخذه بشىء فرط منه ، بل ما كان ليغفر له مرتين ثم لا يجعله مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً : ﴿ **ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً** ﴾ [2] ، فرحم الله أبا أيوب ، وأجزل له الأجر والمثوبة على ما قدّم لدينه ونبيه وأُمته التى أعطاها بدون حدود ، وجاهد فى سبيل رفعة قدرها ، وعلو ذكرها ، حتى لقىَ ربه تحت نقع الخيول ، وصليل الأسنَّة ، مقبلاً غير محجم لم تهن له عزيمة ، ولا انكسرت له إرادة ، ولا أشرك بربه منذ اهتدى إليه وعرف السبيل إلى ما يحبه ويرضاه .

***

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية : ٢٧٣/٤ .

(٢) النساء : ٧٠ .

خاتمة

من مناقب أبي أيوب

وإذا كنا قد وَارينا أبا أيوب فى جدثه ، وأرَّخنا لاستشهاده ، وطمعنا فى عفو الله عنه ، ورفع منزلته فى دار إنعامه ورحمته ، فقد بقىَّ علينا أن نذكر طرفاً من فضائله ومناقبه ، اتماماً للحديث عنه من جانب ، ورغبة فى الانتفاع من علمه ومعرفته من جانب آخر .

فقد جاور رسول الله ﷺ عشر سنين ، وحظِىَ فيها عنده ودنا من قلبه حتى بات أحد خاصته وكبار أصحابه ، وما أشك فى أنه قد اقتبس فى هذه الفترة الطويلة من نور معارفه واغترف من بحار علومه ، وطعم من ثمار فضائله ومناقبه .

وقد صدَّق الواقع هذا كله ، فقد ذكر الرواة أنه روى عن النبى عليه الصلاة والسلام الكثير من السنن ، والكثير من الأحاديث ، وأن ذلك قد شاع وعرفه الناس فشدوا الرحال إليه ، وقبسوا من مشكاة علمه ، وممن روى عنه من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام على سبيل المثال [1] . ابن عباس ، وابن عمر ، والبراء بن عازب ، والمقدام بن معد يكرب ، وزيد بن خال الجهنى ، وأنس بن مالك ، وجابر بن سمرة ، وعبد الله بن يزيد الخطمى . ومن التابعين : سعيد بن المسيب ،

---

(١) ابن عبد البر : الاستيعاب ٤٠٥/١ .

وعروة وسالم ابنى عبد الله وأبو سلمة ، وعطاء بن يسار ابن يزيد .

والذى يستعرض هؤلاء الأعلام ، ويطّلع على سيَرهم يتبين له أن أبا أيوب قد كان إماماً محموداً وصدراً مقصوداً يحرص على مجالسته العلماء ويأوى إلى ظله الفقهاء والحكماء . وناهيك عن أستاذ يكون من تلاميذه حَبرُ الأمة ابن عباس ، وصاحب نسكها ابن عمر ، وقاموس معارفها سعيد ابن المسيب .

ومما رواه أبو أيوب عن رسول الله ﷺ قوله : [**من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة**][1]، وقوله صلوات الله وسلامه عليه :[**لولا أنكم تذنبون لخلق الله قوماً يذنبون فيغفر لهم**] [2]. وقوله عليه الصلاة والسلام : [**من صام رمضان وأتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر**] [3]، وهو صاحب حديث الاستخارة وفيه يقول : قال رسول الله ﷺ : [**اكتم الخطبة ثم توضأ فأحسن وضوءك ، ثم صلِّ ما كتب الله لك ، ثم احمد ربك ومجده ثم قل : اللهم إنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب فإن رأيت لى فلانة "ويسميها" خيراً فى دينى ودنياى**

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣/٤٨٤ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٨/٥٧ .

(٣) ابن الأثير : أسد الغابة ٤/٣٥/٣٦ .

وآخرتي فامضها لي ، أو قال فاقدرها لي][1].

ولم يكن الرجل رضى الله عنه راوياً فقط ، ويسمع الحديث من النبى عليه الصلاة والسلام ويحفظه ، ويبلغه كما سمعه ، وإنما كان فقيهاً كذلك يهدى ويرشد ، وينصح ويعلم ، ويستنبط الأحكام ، ويفسر القرآن . ودخل عليه نوف البكالى ورجل آخر وقد اشتكى ، فقال نوف : اللهم عافه واشفه ، فقال أبو أيوب : لا تقولوا هذا وقولوا : اللهم إن كان أجله عاجلاً فاغفر له وارحمه ، وإن كان آجلا فعافه واشفه وأجره [2].

وقال سالم بن عبد الله : أعرست فى عهد أبى ، فدعا أبى الناس ، وكان فيمن دعا أبو أيوب وقد شروا بيتى بستر أخضر، فجاء أبو أيوب فطأطأ رأسه فنظر فإذا البيت مستر ، فقال : يا عبد الله تسترون الجدر ، فقال أبى واستحيا : غلبنا النساء يا أبا أيوب ، فقال : من خشيت أن يغلبه النساء فلم أخشى أن يغلبنك ، ولا أدخل لكم بيتاً ، ولا أطعم لكم طعاماً [3].

ومن عمق فهمه للقرآن ، وحسن تفسيره له ما رواه أسلم أبو عمران قال : كنا بمدينة الروم فأخرجوا إلينا جمعاً عظيماً ، فخرج إليهم منا مثله أو أكثر ، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر

---

(1) تهذيب تاريخ دمشق ٤٠/٥ ، سير أعلام النبلاء . للذهبى ٤٠٣/٢ .

(2) تهذيب تاريخ دمشق ٤٣/٥ .

(3) الذهبى : سير أعلام النبلاء ٤٠٨/٢ .

صاحب رسول الله ﷺ فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم ، فصاح به الناس وقالوا : سبحان الله !! يلقى بيده إلى التهلكة ، فقام أبو أيوب الأنصارى فقال : أيها الناس إنكم تأولون هذه الآية على هذا التأويل ، وإنما نزلت فينا معشر الأنصار ، إنه لما أعزَّ الله الإسلام ، وكثر ناصروه ، قلنا بعضنا لبعض سراً من رسول الله ﷺ : إن أموالنا قد ضاعت ، وإن الله تعالى قد أعزَّ الإسلام ، وكثر ناصروه ، فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها ، فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ يردّ علينا ما قلنا : ﴿ **وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين** ﴾[1]. فكانت التهلكة فى أموالنا إصلاحها وتركْنا الغزو[2].

ولم تكن فضائل أبى أيوب محصورة فى حفظ الحديث وروايته ، والتدبر فى القرآن وتفسيره ، وإنما كانت له فضائل أخرى كثيرة منها حبه لرسول الله ﷺ ، وحب الرسول له ، قال عباده بن الصامت رضى الله عنه : " خلوت برسول الله ﷺ فقلت : أى أصحابك أحب إليك حتى أُحب من تحب كما تحب ؟

---

(١) البقرة : ١٩٥ .

(٢) تهذيب تاريخ دمشق ٥/٤٥ .

قال اكتم عليّ يا عبادة حياتي ، فقلت : نعم فقال أبو بكر ثم عمر ثم علي ثم سكت ، فقلت : ثم من يا نبي الله ؟ قال من عسى أن يكون بعد هؤلاء إلا الزبير ، وطلحة ، وسعد ، وأبو عبيدة ، ومعاذ ، وأبو طلحة ، وأبو أيوب ، وأنت يا عبادة ، أبي بن كعب ، وأبو الدرداء ، ثم قال : هؤلاء خاصتي وكل أصحابي عليّ كريم حبيب إليّ وإن كان عبدا حبشياً ، قال أبو عبد الله الصنابحي : قلت لعبادة : ألم يذكر حمزة ولا جعفراً ؟ فقال عبادة : إنهما كانا أصيب يوم سألت عن هذا ، إنما كان هذا بآخرة [1].

ومن فضائله رضي الله عنه ، أنه كان له عبد اسمه أفلح ويكنى [2] أبا كثير ، وأن أبا أيوب قد كاتبه على أربعين ألفا فكان الناس إذا رأوا أفلح هنئوا له وقالوا : ليمسك العتق يا أبا كثير ، وقد ندم أبو أيوب على مكاتبته إياه فبعث إليه يخبره أنه رجع عن المكاتبة ، ويطلب منه إحضار الكتاب ، فقال أقارب أفلح له : كيف تجيبه إلى ما طلب ، أتؤثر الرق على الحرية ؟ قال : لا ولكني لا أرفض له طلباً أبداً ، وبعد أن مزق أبوأيوب الكتاب وعاد أفلح إلى مثل ما كان ، وأرسل إليه يخبره أنه حر ، وما كان معه من مال فهو له .

والذي يتأمل هذا الخبر للمرة الأولى ، ويلاحظ أن أبا أيوب قد ندم لأنه فتح الطريق إلى الحرية أمام عبده ، وليس كذلك

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق ٥/٤١ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٥/٨٦ ، ٨٧ .

وإنما كان ندمه لأنه أخذ على هذه الحرية مقابلاً من غلامه ، وهى الأربعون ألفا التى كاتبه عليها .

ومعنى هذا أنه قد استوفى أجره فى الدنيا وهو يريد أن ينال أجره من المولى عز وجل ، ومن أجل هذا مزق الكتاب وأعاد العبد إلى ما كان عليه ، ثم حرَّرَهُ ، وتنازل له عن ماله ، فإن العبد وما ملكت يداه لسيده . فانظر حفظك الله .. كيف آثر الرجل أخرته على دنياه ، وكيف هان عليه ما عند الناس ليحظى بما عند الله ، وكذلك كان أصحاب محمد ﷺ فى إخلاصهم له وعملهم من أجله ، واتجاههم إليه وحده دون غيره ، وإيمانهم بأن الخير كله بحذافيره فى الجنة ، وأن الشر كله بحذافيره فى النار ، وأن من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز .. وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور .. ، وأن الكيس من لام نفسه وعمل لما بعد الموت ، وأن الأحمق من اتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى .

وقد كان أبو أيوب - رضى الله عنه - مثلاً يضرب فى كل فضل ، ونجماً يهتدى به إلى كل خير ، وسراجاً وهاجا ينير الطريق ، ويهدى السبيل .

وما عرضناه من حياته العامرة بالمفاخر ، والزاخرة بالمآثر ، ليس إلا قطرة من بحر رحيب ، وزهرة من روض عجيب ، ترى فيه النخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه ، وانظرو إلى ثمره إذا أثمر وينعه - فسلام على أبى أيوب فى الأولين ، وسلام عليه فى الآخرين وسلام عليه يوم يقوم الناس لرب العالمين .

محتويات الكتاب

* الفصل الرابع :

* خاتمـــة :

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

ترقبوا...

في العدد القادم

الإسلام
دين الإنسانية

تأليف آنا ماري شيمل

من سلسلة دراسات إسلامية

يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الثمن ٥٠ قرشاً

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر